حکایاتِ تحکّی

بسم الله الرحمن الرحيم

ح نادي القصيم الأدبي ، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد ناصر

حكايات تحكى - بريدة

١٧٢ ص ، ١٤×٢٠ سم

ردمك :١-٢٨-٦١٩-٩٩٦٠

١- قصص الأطفال - السعودية أ-العنوان

ديوي ٨١٣ ٢١/٢٨٠٠

رقم الإيداع : ٢١/٢٨٠٠

ردمك : ١-٢٨-٦١٩-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م



حكايات تحكى

بقلم
محمد بن ناصر العبودي

بسم الله الرحمن الرحيم

عمار النجار

عمار النجار

عمار شاب يبلغ العشرين من عمره، أبوه نجار، وجده نجار، ولذلك كان أبوه يحدثه كثيراً بأنه نجار أصيل، ويقول له: يا ولدي يا عمار، الصنعة عيشة، أنا علمتك وعلمت أخاك علياً النجارة مثلما علمني أبي، والله لو تعرف الذي أعرفه من أوقات مرت على الناس، كان الناس فيها يموتون جوعاً، أو يفرون على وجوههم إلى بلاد بعيدة، ونحن في بلادنا لأن صنعتنا كفتنا عن الغربة.

وكان والد (عمار) قد توفي قبل عام، ولم يخلف إلا ولده الأكبر علياً وابنة له اسمها (ثريا)، وهي متزوجة ولها أولاد، وأم عمار وهي امرأة كهلة قد تكفل أخوه علي برعايتها وتوفير ما تحتاجه في البيت، وكان أخوه علي قد تزوج منذ عهد قريب ولم يرزق بأولاد بعد، فكان أهل البيت قليلي العدد، قليلي المشكلات، بل لم يعرفوا المشكلات أصلاً، لأن العلاقة الصعبة التي تكون بين المرأة وكنتها (زوجة ابنها) هي سهلة فيه، فكلتا المرأتين كانت عاقلة متدينة.

ولذلك شعر عمار أنه كالغريب في البيت، ومع ذلك ليس هذا ما أقلقه أو ألقى له كبير بال، وإنما شعر بأنه لا ضرورة لوجوده فيه، وأن أحداً لن يضار إذا فارقه.

طرأت هذه الأمور على ذهنه عندما أخذ يفكر في ماضي والده وجده وأنهما نجاران، ولكنهما ظلا فقيرين بمقاييس الفقر والغنى، فلم يحصلا على فضل من المال قط، ولذلك عاشا عيشة رتيبة دون الغنى وفوق الفقر الذي يصاحبه الجوع، وقد يصاحبه المرض أيضاً، وكان يسمع منذ أن عقل أخبار الذين أصابوا ثروات طائلة، وصاروا من أهل المال والغنى ففاض ما عندهم على أقاربهم؛ بل على جيرانهم وجيران جيرانهم، وصار لهم بذلك صيت وذكر شائع في الناس، وحدثته نفسه بما رزق من طموح أن يكون مثلهم، ولكن أنى له ذلك وهو لا يزيد على كونه نجاراً بسيطاً يكسب ما يقيم أوده، ويقيه غائلة الجوع، ولكنه لا يتسع للعطاء والكرم.

بل ولا لحياة الوجاهة والرفاهية.

وكان سمع من كبار السن في القصص والحكايات أن الثراء يكون من أمور ثلاثة: إما تجارة رائجة تبدأ برأس مال جيد، أو بالعثور على كنز في بعض الخرائب أو البيوت القديمة، أو الغوص في البحر والعثور على درة ثمينة في جوف محارة من المحار.

وقال في نفسه: أما التجارة فإنني لا أؤمل أن أحصل عليها في هذه البلاد، لأن أهلها يحصون القليل والكثير من المال، ولا

يسمحون بأن يدفعوا للتجار ربحاً كثيراً، وحتى من يربح منهم ربحاً قليلاً نتيجة لاجتهاده ذلك وتعبه في تثمير ماله فإنه قد يصاب بالعين، فيعجز عن مواصلة التجارة.

وأما البحث عن الكنز في الخرائب والدور القديمة فإن ذلك جنون من الجنون، لأنه يكون أو لا يكون، والذين عثروا على الكنوز بهذه الطريقة إنما عثروا عليها مصادفة، وأنى له أن يعمل هذا العمل، ولم يبق ما يفكر فيه إلا بأن يذهب إلى عدة بلدان يحاول أن يعمل تاجراً فيها حيث لا يعرفه أحد، ولا بد من أن تكون البلدة التي يعمل فيها كبيرة حتى لا يصيبه الحسد، لأن المدن الكبيرة يقل فيها الحسد لعدم معرفة الناس كلهم بأصول أكثرهم، ولا بكيفية نشأتهم، وإنما يعرف بعضهم بعضاً بعد ذلك.

وقال في نفسه: إذا سافرت إلى هناك واشتغلت بالتجارة، ولم أحصل على ما أريد من الثروة سافرت إلى البلدة الفلانية التي بعد تلك الديار، فغصت في البحر مع الغواصين وحاولت أن أحصل على الدر المطلوب.

وهكذا تولد عنده اقتناع بأن لا تكون حياته كحياة أبيه وجده رتيبة ليس فيها إلا النجارة ولزوم المكان حتى إنه يذكر أن والده كان يشتكي من وجع في ظهره ألجأه في آخر

الأمر إلى الانحناء من فرط انكبابه على عمله، وملازمته لذلك.

وفكر في أسرته فحمد الله في سره على أنها قليلة العدد وأن أخاه علياً متكفل بها.

البحث عن الثروة:

لم يكن لديه ما يحتاج إلى وقت طويل من الإعداد والاستعداد، فليس يملك مالاً ذا بال، لأنه كان في الماضي يعمل مساعداً لوالده يقبض والده أجر عمله، ويضمه إلى ما ينفقه على بيته وأسرته، وإنما كان أشق ما عليه أن يخبر أمه بعزمه، فأخبرها ببعض ذلك لا به كله.

قال لها: إنني يا أمي أريد أن أذهب إلى البلدة الفلانية التي تبعد كثيراً عن بلدتنا؛ لأنه ذكر لي أن النجارة فيها رابحة لأن نجارها وأولاده هجروها إلى مدينة أخرى، وسوف أبقى طويلاً هناك حتى أوفر نقوداً أتزوج منها واشتري ببقيتها بيتاً لي وأولادي إن قدر لي أن يأتيني أولاد، لأن أخي (علياً) في البيت وهو لا يتسع لنا معاً إذا رزقنا بأولاد وبنات، ولكن أرجو ألا تقلقي عليَّ، إذا أبطأت عليك أخباري أو انقطعت عنك، فإنني قد أجد عملاً يستغرق كل أوقاتي.

قال لأمه ذلك وذكر لها اسم بلدة لن يذهب إليها، بل هي

في الجهة المغايرة لجهة البلدة التي سيذهب إليها، كل ذلك من أجل أن يعمي أخباره، وأن يتفرغ لما سافر من أجله، وأن ينفق جزءاً كبيراً من عمره من دون أن يشعر أحد أنّ ذلك غير طبيعي.

قال لها: سوف يكون سفرنا الليلة بعد المغرب، ولكنه عاد وقال لها: إنه سيكون في صباح الغد، والواقع أن الركب الذين سيسافر معهم قرروا أن يسروا سُرى، وهو أن يبدؤوا السير في أول الليل، ولكنه لا يريد أن يعرف بهم أحد..

وسافر في تلك الليلة، وذكر أن الشيء الذي توقف عنده وأخذ حيزاً من تفكيره بعض الوقت هو (قدومه) الذي يستعمله للنجارة، فقد كان قرر أول الأمر أن يتركه ليتخلص من كل ما يشده إلى حياته القديمة، ثم قرر آخر اليوم أن يأخذه معه، لأنه قد يحتاج إليه، وقد يكون الخلاص من الجوع في حده القاطع، لأن (صنعة في اليد أمان من الفقر) كما كان والده يقول له ذلك.

أخذ معه القدوم، ولم يأخذ غيره إلا ملابس له، وأقراصاً يابسة أعطته إياها أمه مع قليل من التمر الجاف أيضاً الذي كان المسافرون يحملونه زاداً للسفر وضماناً من الجوع، ولكنه قليل لا يزيد على كونه تعلة المسافر، وتحلة القسم..

سار الركب سيراً معتاداً، وليسوا قافلة ثقيلة الحركة بطيئة الانتقال، وقد وصلوا إلى بلدة (الخرارة) التي قصدوها بعد خمسة أيام من السير المجدّ، بديلة من الأيام السبعة التي تقطعها فيها القوافل في العادة..

كان (عمار) أكثر من في الركب فرحاً بالوصول لأنه شعر في نفسه كأنما اقترب إلى الهدف الذي حدده لنفسه، إلا أنه عندما فكر قال في نفسه لنفسه: ما الذي يجعلني أجزم أن الأمور في هذه البلدة ستأتي على ما أريده؟ وعندئذٍ حوقل واسترجع ودعا بأن يطعمه الله من خير هذه البلدة ويكفيه شرها.

كان الفصل فصل الصيف لذا نام الركب خارج أسوار البلدة في العراء، وفي الصباح ودع بعضهم بعضاً، ولكن كان نصيبه نصيب أقلهم من هذا الوداع، لأنه لم يبذل فضل مال وطعام للرفقة، ولم تكن تربيته تؤهله لأن يخدمهم كما يفعل من تمرنوا على السفر والترحال..

كانت البلدة جميلة في هذا الفصل، وقد أدركت معظم الفواكه فيها، وهي خصبة سميت (الخرارة) باسم عين كانت شديدة الجريان في أصل جبل لا يبعد كثيراً عن البلدة، فكان يسمع لمائها وهو يسيل بقوة من الجبل خرير ظاهر، وقد نشأت

البلدة بقربها فسميت عليها، ولكن شهرة البلدة لم تكن بسبب خصبها الظاهر وحده، وإنما بسبب ازدهار التجارة فيها، فقد كان أميرها تاجراً في الأصل قبل أن يصبح أميراً، وقد عرف أهمية التجارة وأنها لا تزدهر إلا إذا وفرت الأمن والأمان للتجار، وسهولة الإجراءات في إدخال المال وإخراجه..

وبذلك شعر الناس جميعاً بالأمن فيها لا سيما أنه كان يعاقب اللصوص بل المتهمين بالسرقة أشد العقاب..

التهمة والسجن:

حدث قبيل وصول (عمار) إلى بلدة الخرارة أن سرقت نقود كبيرة من تاجر مشهور، ومعها ذهب وفضة بل وفيها -حسبما زعم ذلك التاجر- جواهر كثيرة، وكان ذلك التاجر قد نزل في بيت من البيوت، وذهب في ليلة من الليالي ليبيت عند أصحاب له في جانب من البلدة، فلما عاد في الصباح وجد أن باب البيت قد نحت نحتاً بقدوم كقدوم النجار، وآثار ذلك بادية عليه، وأن جميع ماله قد سرق..

ذهب إلى الأمير وهو في غاية الفزع، وكان ذا لسان وفصاحة وجرأة فقال له: أيها الأمير أين ما كنت تقوله، بل وتفتخر به من الأمان للتجار وأصحاب الثروات في بلادك؟ وقد

فارقت بيتي ليلة واحدة فوجدت في صباحها كل مالي مسروقاً؟ بل أين أصحاب العسس والشرطة الذين تقول إنك تسيرهم بالليل، ليرقبوا حركات الناس وسكناتهم، حتى لا يدعوا مجالاً للصوص والسراق للحركة فضلاً عن السرقة والانتهاب؟

وقد شق على الأمير ذلك لكون السرقة قد حدثت بالفعل، وهو ما قامت شهرته على عدم حصوله، ولكون ذلك التاجر قد مس جانباً حساساً من عاطفته، لذا لاطف التاجر قائلا: سوف نقبض على اللص أو اللصوص ونعيد إليك مالك..

وكان قد عرف ورجاله بالتجربة أن مثل هذه السرقة لا يقدم عليها إلا لصوص غرباء قد اعتادوا الإقدام على أمثالها في بلاد ليس عليها أمير مثله في الحزم والعزم وشدة الصولة والعقاب..

وقال لرئيس شرطته ورجاله: لا بد أن اللص غريب فعليكم إحضاره لي، لأن الغريب تسهل معرفته، وإلا فإنني سوف أعتبر أنكم السراق، وسوف أجازيكم بالعقاب الشديد فضلاً عن الطرد من الوظيفة والحرمان مما تملكون..

كانوا يعرفون منه الشدة بل القسوة، وأنه إذا هدد بعقاب فإنه ينفذه ولو كان الداعي إليه قد انتفى وذهب، لذلك

أسرعوا يبحثون في البلدة، وهي كبيرة، عن شخص غريب تنطبق عليه أوصاف اللصوص كما تخيلوها أو رسموها في أنفسهم.

وسرعان ما رأوا عماراً يسير وهو يتلفت فعل الغريب المريب، فأمسكوا به ولم يعنفوا عليه خشية أن يكون من ذوي المقامات الذين يكون خلفهم من يدافع عنهم، وسألوه: أأنت من أهل هذه البلدة؟

ولم يدر بباله أن وراء هذا السؤال أمراً ذا بال، فأراد أن يجيب جواباً يقطع الحديث وهو يشيح بوجهه عنهم، ويقدم رجله يريد الانصراف والابتعاد: نعم.

فسألوه عن اسمه وعن المحلة التي يسكن فيها وتسكن فيها أسرته، فلم يجب، وهنا قال له رئيس الشرطة: إنني رئيس الشرطة وهؤلاء رجالي، ونحن نسأل الغرباء عن البلدة عن بعض الأشياء غير المهمة من باب الاطمئنان على سلامتهم، فقال: الحقيقة أنا غريب ولست من أهل هذه البلدة.

فسألوه عن قدومه إليها متى كان؟ وحتى تلك اللحظة لم يكن الأمر انجلى أمام ذهنه، بل ظن أنهم محتالون أو من عامة الناس الذين يريدون الاطلاع على ما اعتبره سراً من

أسراره فقال لهم صادقاً: قدمت البارحة.

وكانت السرقة قد حدثت قبل أربعة أيام، فسألوه عن القافلة التي قدم معها عن اسم رئيسها والعاملين معه فيها، فذكر أنه لا يعرفهم وإنما يعرف الأسماء الأولى لثلاثة منهم سمع بعضهم ينادونهم بها وهي: خطار، وأبو صالح، وحمد الطويل.

فازداد شكهم فيه، ولكنهم سألوه عن المدينة التي قدم منها، وهنا وصل الأمر إلى الحد الذي تخيله سراً من أسراره، فلم يرد أن يخبرهم بمدينته التي قدم منها وإنما ذكر لهم اسم مدينة مغايرة في الاتجاه لمدينته بالنسبة لمن يكونون في بلدة (الخرارة)، ولم يكن يعرف تلك المدينة إلا بالسماع، فسألوه كم استغرق السفر منها إلى مدينة الخرارة؟ فقال: خمسة أيام، ذكر لهم الواقع بالنسبة إلى المسافة من بلدته إليها، ولكن الواقع أن المسافة من المدينة التي ذكرها إلى الخرارة كان يحتاج إلى اثني عشر يوماً أو أربعة عشر يوماً.

لذلك ترجح عندهم أنه يحتال عليهم، وأنه اللص الذي سرق ثروة التاجر الغريب.

وقد ترجح عندهم ذلك عندما سألوا العارفين بأمر

القوافل عن وصول قافلة أو ركب من المدينة التي ذكرها أمس فنفوا ذلك، فطلبوا منه أن يدلهم على المكان الذي يسكن فيه وكان استأجر غرفة صغيرة بل حقيرة في حوش في جانب من ناحية المدينة، وقال لهم عندما سألوه عن مهنته، ولماذا جاء إلى مدينة الخرارة: إنه جاء للتجارة وطلب الرزق..

ولم يجدوا في مسكنه إلا القدوم الذي كان أحضره من بلدته، ولم يجدوا شيئاً يدل على أنه تاجر من المال ولا من البضائع ولا مما يستعمله التجار ويكون معهم في العادة..

فسألوه عن هذا القدوم ولمن هو؟ فأجاب: إنه لي فقالوا: أنت جئت للتجارة ولم تحضر معك إلا هذا القدوم، فهل هذا فعل التجار؟ فقال لهم: أحضرت معي القدوم من أجل أن أتكسب به إذا خسرت تجارتي لأن المثل يقول: (صنعة في اليد أمان من الفقر)، وهنا رفع الضابط يده إلى أقصى ما يستطيع ثم أهوى بها على خده بصفعة جعلته يستدير مرغماً أكثر من مرة وقال له الضابط: أيها اللص الغبي، أتحاول أن تخدعنا وتضحك علينا بحيلك الصبيانية وأقوالك الملفقة..

وهنا تيقن (عمار) أن الأمر جد كله، فحاول أن يتكلم ولكنه كلما أراد ذلك تلقى لكمة أو ضربة من الجنود، فسكت مرغماً وقد وضعوا في يديه القيود، وحملوه إلى الأمير

قائلين: أيها الأمير لقد وجدنا اللص الغريب، ثم قصوا عليه خبره كله لم يزيدوا ولم ينقصوا، وبخاصة قصة القدوم الذي معه في بيته، فسأله الأمير بتؤدة وعدم تعنيف: أذلك صحيح؟

فأجاب: نعم.

وكان الأمير ينطلق في ذلك من دهائه وتجربته إذ يجامل اللصوص أول الأمر من أجل أن يستحصل على ما سرقوه ثم يعذبهم العذاب الشديد.

لذلك قال له: أيها الغريب ما اسمك؟ قال: عمار، فقال: يا عمار، ربما كان الشيطان أغواك فأغراك بالسرقة في مدينتنا التي لا تعرف السرقة، ولكن من تاب تاب الله عليه، فأشير عليك أن تتوب، وترد المال الذي سرقته، ونحن نعدك بأن يكون عقابك خفيفاً إذا فعلت ذلك، ثم أخبرنا بشركائك في السرقة، وهنا قاطعه (عمار) بشدة بل بحدة يقول: أنا لم أسرق، لأنه شعر بأنه مظلوم من الشرطة، وكان يعتقد أن الأمير سينصفه منهم إضافة إلى إحساسه بالمهانة من اتهامه بشيء هو أبعد من يكون عنه وهو السرقة؛ لأنه في حياته لم يسرق شيئاً، ولا حتى قطعة من أقط كانت مع صبي، وكان عمار يشتهيها فغفل عنها الصبي، وكان بإمكانه أن يأخذها ويأكلها أو يخفيها ليأكلها بعد ذلك، ولكنه لم يفعل

كراهية للسرقة التي كان أهله قد ربوه على الابتعاد عنها..

ثم اندفع ليحدث الأمير بقصة قطعة الأقط هذه التي كان يشتهي أن يسرقها من صبي ولكنه لم يفعل، وأراد أن يقول إنه لم يشته أن يسرق شيئاً طول حياته، ولكن لم يشعر إلا بشيء نزل عليه وأفقده صوابه، وذلك أن الأمير استشاط غضباً منه وضربه بعصا غليظة في رأسها كرة حديدية على رأسه فغاب عن وعيه.

وعندما استعاد وعيه رأى أن ما حوله قد لون بلون أحمر من دم كان نزل على عينيه من رأسه.

وقال الأمير و (عمار) غائب عن الوعي: لولا أنني أخاف على المال الذي سرقه أن يذهب لقتلته، ولكن عذبوه ولا تبلغوا به درجة القتل، إننا نريد أن نسترد المال وأن نعرف شركاءه في السرقة، وإذا لم نعرف ذلك منه لم نعرفه من غيره..

أخذه رئيس الشرطة إلى السجن، وصار يعذبه بكرة وعشيا بالجلد والضرب حتى يفقد وعيه، وكان أحياناً عندما يكون كذلك يجيبهم إلى ما يطلبون منه من الإقرار بالسرقة بالهذيان وعدم تمييز ما يقولونه، إلا أنه إذا رجع إلى وعيه أنكر ذلك.

وقد قال مدير الشرطة لأعوانه: من العادة أن اللص ونحوه يقر في غياب ذهنه بما لا يقر به في حال صحوه، وهذا الرجل خلاف العادة.

لقد أوقف الأمير ورئيس الشرطة البحث عن سارق المال، اعتقاداً منهم أنه (عمار)، أما صاحب الشرطة فإنه قد وجد فيه كبش الفداء الذي يبحث عنه، وأما الأمير فإنه قد رسخ في ذهنه أنه اللص السارق.

ولكن المشكلة عندهم أنه لم يعترف بالسرقة، ولم يقر بالمال المسروق، لذلك قال الأمير لأعوانه: أذيقوه. العذاب الأليم.

فقذفوا به في أقسى سجن عندهم وأفظعه، وهو سجن ليس له باب، وإنما في سقفه فتحة يلقى بالسجين منها مدلى بحبل غليظ حتى يصل إلى الأرض، فإذا أرادوا رفعه رفعوا ذلك الحبل الضخم الذي يبقونه متصلاً به، ولا سبيل للتململ منه لأنهم يقيدون رجليه ويديه، وهكذا يصبح لا حول له ولا قوة، ولا يستطيع أن يتحرك؛ بل لا يستطيع أن ينام.

وأما الطعام فإنه الخشن المالح الخالي من الإدام، وذلك بزعمهم من أجل أن يعترف المجرم بجرمه، فيهون عليه العقاب إذا ما قارنه بالبقاء في السجن.

ومع خشونة الطعام ورداءة نوعه فإن رئيس المساجين وهو غليظ قاسي القلب؛ بل لا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبه كان يبخس من طعام السجناء يطعم منه غنماً عنده.

وصاروا يغادون (عماراً) ويراوحونه بالعذاب، ولم يكن يرى شيئاً أو يبصر شيئاً في سجنه المظلم، ولا كان يعرف الليل من النهار والنهار من الليل إلا بصياح ديك بعيد كان يتسلل إلى السجن دون إذن من السجان الغليظ؛ غير أن صياح الديك الذي يستبشر به الإنسان في العادة لأنه يبشر بالنور والسرور كان نذيراً بالعذاب والثبور لعمار، لأنه دليل على قرب وجبة الإفطار من العذاب.

السجن المقيم:

اشتهرت قصة (عمار) في قصر الأمير وغدا تعذيبه حديث الجميع حتى وصل إلى زوجة الأمير وهي امرأة عاقلة تمقت الظلم فضلاً عن المبالغة بالعذاب، فكلمت زوجها بشأنه محذرة إياه من ظلم يلحقه أمره في نفسه وولده، فقال لها: أما الذي يغيظني أنه لم يعترف بالسرقة مع أن كل القرائن تدل على أنه السارق.

فقالت له: هل تشهد أمام الله إذا سألك عنه يوم القيامة أنه السارق؟ فقال: لا، قالت: إذاً أرسله للقاضي، فإن ثبت عنده

شرعاً أنه السارق أقم عليه الحد الذي أمر الله به، وهو قطع يده، وإلا لم يجز لك أن تعذبه هذا العذاب الأليم..

وقد أرسله إلى القاضي بالفعل، ولكن لم يثبت عنده أنه سارق لذلك كتب للأمير بأنه لم يثبت عليه حد السرقة، ولذلك لا يجوز قطع يده..

وقالت زوجة الأمير: إن العادة أن اللصوص لا يحتاجون إلى كل هذا العذاب ليعترفوا، لأنهم يكونون قد وطنوا أنفسهم على تحمل العقوبة عندما يعثر عليهم، ولو كان هذا سارقاً أو يعرف شيئاً عن المال لاعترف تخلصاً من العذاب..

واقتنع الأمير من ذلك، وأمر بحبسه دون تعذيبه، وألا يذكره عنده أحد إلا إذا سأل عنه.

هذا وقد أعطى الأمير التاجر الذي سرق ماله تعويضاً قليلاً، ووعده أنه إذا اكتشف المال المسروق وكان أكثر من ذلك فإنه سيعطيه الباقي، وإلا فإنه يعتبر هذا تعويضاً ببعض الشيء عن الكل.

ولذلك نسي الأمير (عماراً) بما شغله من أمور أخرى..

أما السجان فإنه لم ينسه من الإهانة والاستمرار بالسجن الثقيل، إلا أنه عافاه من رفعه بالحبل وخفضه في السجن كل

يوم.

وكان الشيء الوحيد الذي أحس بأنه يهون عليه مصيبته أنه سجن مع خمسة رجال، ادعى اثنان منهما أنهما مظلومان، وأن قصتهما تشبه قصته إلا أنهما من أهل المدينة، ويأتي أهلهما أحياناً لهما بطعام وافر يأخذ السجان حصته منه ويعطي السجين الباقي، فيتقاسمه بقية السجناء الذين لا يأتي إليهم شيء ومنهم (عمار).

وقد مضت على سجنه أيام وليالٍ كثيرة لا يذكرها بل لا يمكن له أن يعرفها، إلا أنها طويلة طويلة، وقد أصيب بالتعب والهزال من قلة الحركة وانعدام الغذاء المفيد، ولم يكن له ما يسليه أو يجلب شيئاً من العزاء إلى نفسه الحساسة إلا تلاوة آيات قليلة من القرآن الكريم كان يحفظها قبل ذلك، ومنها الآيتان الكريمتان: ﴿ فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾ فكان يرددها يرفع بذلك صوته الذي لا يسمع له صدى إلا من المساجين حوله، ويكررها حتى يغلبه التأثر وهو يفكر في معناها فينهمر دمعه، ويشعر بعد ذلك براحة نفسية.

ولم يكن رفقاؤه في السجن متدينين قبل دخولهم السجن، ولكنهم أصبحوا بتأثيره وبتأثير العناء العظيم متدينين

حيث أصبحت أرواحهم على حالة من الشفافية غريبة لم يكونوا يعهدونها.

اليسر بعد العسر:

لا يدري (عمار) كم أمضى في السجن بل لا يستطيع أن يخمن شيئاً حول ذلك؛ لأنه لم يكن يعرف الليل من النهار ولو عرفهما فإن كل الليالي والأيام متشابهة في نظره حتى لا يستطيع تمييزها ، أما أيام الأسبوع فإنه كان يعدها من الأساطير التي كان قد سمع بها ونسيها.

كان الأمير لم يرزق من الذرية الذكور إلا واحداً مات في ريعان شبابه ، ولم تحمل أمه بعده إلا ببنت بعد مدة فنذر لله نذراً أنه إن رزق ولداً ذكراً فإنه سوف يفعل أشياء من الخير، ومنها إطلاق سراح سبعين سجيناً من سجونه.

وتحققت المعجزة ، فولدت امرأته له ولداً ذكراً كان أسعد الناس بولادته من حيث لم يدر عمار ، إذ وقع الاختيار عليه في جملة السجناء السبعين.

وعندما حان خروجه دفعه السجان الغليظ دفعة كادت تحطم عظامه حتى إن أحد رجاله لامه على ذلك..

فقال له السجان: إن هذا لم نر منه شيئاً أبداً فلم يزره

أحد يمكن أن نأخذ منه شيئاً، ولا أحضر له أحد طعاماً أو لباساً مثل بعض السجناء ننتفع به، وكان أقارب السجناء يحضرون مثل هذه الأشياء فيأخذها أو بعضها السجان لنفسه.

وهذا صحيح إذ لم يسأل أحد عن (عمار)؛ لأن أهله لا يعرفون عنه شيئاً ولا يدرون الجهة التي اتجه إليها؛ بل إنه ضللهم حينما ادعى أنه ذاهب إلى جهة غير الجهة التي هو ذاهب إليها في الحقيقة.

كان فرحه بالخلاص من العذاب الأليم لا يوصف إلا أنه انقلب إلى ترح عندما أراد المشي فخانته رجلاه لأنهما قد نسيتا المشي وتحتاجان إلى قوة من الدم لا يجدها، وإلى تمرن متدرج.

فجعل يزحف على الأرض والسجان يركله يريد أن يخرج من باب السجن الخارجي قبل أن يبدو للأمير شيء في أمره، فيعيده إلى السجن، وهذا ما لا يريده السجان لما ذكرناه..

وقد سحبه رجال السجان حتى وضعوه في جانب الشارع خارج السجن، وبذلك شعروا أنهم قد تخلصوا منه.

أما هو فإنه شعر بأنه لا يزال مقيداً رغم كون قيده قد فك عنه، ولم يكن عليه إلا ثوب خلق مهلهل فيه من الخروق والفتوق ما صار يفضح جسده، وتبدو منه بعض عورته فأخذ

يلملم أطرافه بيده ليستر عورته، ولكنه كان لا يستطيع أن يبصره لأن عينيه قد بهرهما الضوء الذي كادتا تنسيانه..

ولم يجد بدأ من أن يضع رأسه بين يديه، ويدخله بين رجليه اللتين نصبهما حتى صار كأنه كومة من العظام التي لفت بقطعة ممزقة من القماش.

ولكن الشعور بالحرية غمره، وذلك باستنشاق الهواء النقي فغلبه النعاس، وشد ما كان فرحه حينما فتح عينيه ببطء فوجد أنهما تبصران الأشياء، ووجد حوله جماعة من الصبيان ينظرون إليه بعيون فاحصة، ولكنها خائفة فطلب منهم أن يسقوه ماء، فذهب أقربهم بيتاً منه إلى أهله وأخبرهم بعجيب ما رآه من أمره، وأحضر الماء مما جعل أمه تأتي معه لترى ما ذكره، فرأت الرجل وقد بدت بعض عورته فأشاحت بوجهها عنه، وقالت وهي لا تنظر إليه: ما الذي أصابك يا هذا؟ أأنت مجنون؟ وكانت هذه العبارة أشد عليه مما هو فيه، ولكنه تمالك نفسه وقال: يا بنت الحلال، إن كان عندك ثوب خلق لأبو عيالك هاتيه أستر به عورتي الله يستر عليك..

فعرفت أنه ليس بمجنون وأسرعت تعطيه ما طلب، وقد لبس الثوب الخلق، وأبعد عنه المزق البالية المهلهلة من ثوب السجن، ومد رجليه، ورفع رأسه فبدا طبيعياً لذلك لم يعد فيه

ما يسترعي انتباه الصبية الذين تركوه ومضوا لسبيلهم..

ثم أرسلت امرأة كانت تنظر إليه من خلل باب بيتها تمرات مع طفل لها فوضعها الطفل في يده فأسرع يمصها ويتذوق حلاوتها، ولم يرد أن يقذف نواها حتى جعلها تبدو كأنما غسلت عدة غسلات.

لقد شرب الماء وأكل التمرات، وستر عورته، وتنسم الهواء النقي، فشعر بارتياح عظيم، وأراد النهوض غير أنه عرف أنه لا يزال عاجزاً عن استخدام رجليه..

لذلك هداه تفكيره إلى أن يطلب من رجلين مرا به أن يساعداه على الوصول إلى المسجد، وكان بقريه مسجد رأى منارته فساعداه حتى وضعاه في المسجد.

وكان من عادتهم في زمنه أن يقصد الغريب المحتاج، والمريض الذي ليس له من يمرِّضه المسجد، فيبقى فيه فلا يعدم من يعطف عليه، أو حتى لا يمنّ عليه أحد ببقائه عنده إن وجد من يقبل بذلك.

وقد بقي في المسجد بين النوم واليقظة، بل إنه نام حتى نبهه صوت المؤذن لصلاة الظهر، وقال للمؤذن بعد أن فرغ: إنني مريض، وإن رجلي لا تقويان على السير فأحضر لي ماء أتوضأ

منه، وقد فعل المؤذن ذلك..

وصلى مع جماعة المسجد صلاة الظهر قاعداً، ولم يكن عددهم كثيراً، ولكن لم يكلمه أحد، ولم يسأله أحد عن حاله.

وهكذا في صلاة العصر حتى حدثته نفسه بعد العصر أن يسأل الناس لأنه يخشى ألا يساعده أحد، ولكن لم يستطع أن يمد يده بالسؤال والاستجداء.

وحان موعد صلاة المغرب، وإذا بأحد المصلين ينظر إليه مرة بعد أخرى ثم يذهب ويتركه.

كان الرجل محباً للخير، ولكنه لم يجرؤ على الاقتراب منه، إذ يخاف أن يكون مصاباً بمرض معدٍ كالجدري، أو أن له قضية قد يناله بسببها ضرر إذا اقترب منه.

ولما عاد إلى بيته بعد صلاة المغرب وجد زوجته قد أعدت له طعاماً فاخراً سبقت رائحته إلى أنفه قبل أن يصله، وإذا بطفل له جميل يبلغ الثالثة والنصف من عمره يسرع إليه فيحتضنه، فذكر حالة المريض الفقير في المسجد وهو (عمار) وقال لزوجته: إنني رأيت رجلاً كأنما خرج من أنقاض بناء كان وقع عليه فإما أن يكون كذلك أو أنه مصاب بمرض

فظيع، وعندما رأيتك على أحسن حال، وهذا الطعام الفاخر بين يدي، وولدي الجميل بين أحضاني أدركتني رحمة لذلك الغريب المريض، ولم استطع أن أمد يدي إلى الطعام فماذا أصنع؟

فقالت له زوجته: هذا الرجل مريض وضعيف؟ فقال: بل إنه الآن لا يزيد على كونه كومة عظام إن كان بقي له في رجليه عظام، فإنني لم أره واقفاً.

فقالت: إذاً اعرف أنه نعمة ساقها الله إليك لتحصل على الأجر من ورائه، يا أبا فلان احتسب الأجر من الله، وأدخله للغرفة التي عند الباب، وهي بعيدة عنا، وأطعمه فذلك لا يضيع عند الله.

عاد الرجل المحسن واسمه (عبد الله بن مؤمن) وقال لعمار معتذراً: يا أخي أرجو المعذرة على تركي إياك، فإنما كنت أسعى في تهيئة مكان لك في بيتي، والآن تفضل..

حاول عمار أن يقوم على قدميه ولكنه عجز عن ذلك، فساعده عبد الله على الوقوف معتمداً عليه ثم أخذ بعضديه، وصار يجره جراً إلى بيته.

وجد عبد الله أن زوجته قد أعدت فراشاً وثيراً ووسادة

وغطاء في الغرفة، فوضعه فيها وقد شرق عمار بدمعه وهو يدعو لعبد الله، ذلك بأن السجن قد أعطاه شفافية وتأثراً بالأحداث لم يكن عنده قبل ذلك.

وعندما استلقى على الفراش الذي نسي الاستلقاء على مثله منذ شهور كثيرة، أو سنين لا يدري عددها تذكر حالته في السجن، بل تذكر حاله قبل السجن فأجهش بالبكاء وهنا دخل عليه عبد الله بمرق دسم حار فوجده يبكي بحرارة، فخيل إليه أن ذلك لتقصير أحس به نحوه، فقال: يا أخي اعذرني، ما تيسر عندنا إلا هذا الفراش، وهنا زاد تأثره وبكاؤه، حتى إن عبد الله لم يستطع أن يمد إليه المرق بسرعة حتى هدأ، وقال: يا أخي عبد الله؛ إنني أبكي لفعلك بي، وإحسانك إليّ، وهذا الفراش الذي أحضرته ذكرني بفراش كانت أمي التي لا أعلم عنها شيئاً الآن أحية أم ميتة تفرشه لي، وأنا عاجز عن رد المعروف الذي أسديته إليّ بمعروف مثله، لأنني خفت أن أبقى مطروحاً في المسجد بدون أن أجد من يعتني بي ويساعدني، ولذلك لا أجد إلا أن أدعو الله تعالى لك بأن يبارك لك في مالك وولدك، ويلبسك رداء الصحة والعافية في بدنك..

وهنا شرب المرق الحار الذي بعُد عهده به، وشعر بأن العطف الذي غمره به عبد الله، بعد أن كان لا يرى إلا ذلك

السجان الغليظ قد رفع روحه المعنوية حتى شعر وهو جالس دون أن يحرك رجليه أنه هو (عمار) عندما كان عند أهله في بيته..

وقد قدم له عبد الله طعاماً مناسباً لحاله.

اللطف الخفي:

لا يزال (عمار) يردد رغم خروجه من السجن قوله تعالى: ﴿ فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً ﴾ وكان من لطف الله الخفي أن سخر له هذا الرجل المحسن الطيب، (عبد الله ابن مؤمن) الذي أعجبه ما يتمتع به (عمار) من خلق واتزان وعمق تفكير في نظرته إلى الأشياء، ولكنه لم يسأله عن حاله حذراً من أن يكون ذلك مكدراً له، وأن يعتقد أنه قد مل بقاءه في بيته.

وقد حسنت حال عمار بسرعة، وصار يسير على قدميه مستعيناً بالعصا، ثم صار يسير ببطء دون عصا.

وصار يغادر بيت عبد الله في الأوقات التي لا تكون الشوارع فيه مزدحمة، ولا يخشى من أن يراه أحد..

مع العلم بأنه ليس هناك ما يحاذر منه الآن، فالمحذور قد أصابه وقد تجاوزه.

وقد تغير منظره حتى صار الذين يعرفونه وهو مسجون أو حتى قبل ذلك لا يعرفونه إذ صار رجلاً آخر متزناً مهذباً لا يخاطب الناس بكلمة خشنة، ولا يزاحم أحداً في طريق، ولا يرفع رأسه إلى امرأة أجنبية، لأن السجن هذب نفسه، وأزال كل درن كان لحق بها أيام الغفلة والشباب..

وكان من لطف الله الخفي بعمار أن اللص الذي سرق مال التاجر الذي اتهم عمار بسرقته، وكان من خارج مدينة (الخرارة) قد عاود المجيء إليها ليسرق منها أيضاً لأنه جرب الإفلات في المرة الأولى لكونه دخلها ليلاً مختفياً وخرج منها مختفياً بالليل أيضاً.

وأراد أن يكرر فعلته، فدخلها متنكراً في الليل وقصد البيت نفسه، وكان فيه تاجر آخر فاستعمل القدوم لنحت ما حول القفل من الباب الخشبي، ودخل الدار بعد أن خرج منها التاجر، ولكنه لم يعرف أن في داخلها اثنين من رفقاء التاجر الأشداء، وبينما كان يجمع المال ويحمله ويهم بالخروج من الدار عرف به الشخصان الموجودان، وهما قويان فسيطرا عليه وأمسكاه رغم سكين حادة في يده إلا أن أحدهما ضرب يده التي فيها السكين بقوة فسقطت منها.

وسلموه لشرطة الأمير الذي تيقن أنه هو الذي حاول

السرقة بشهادة الشاهدين، بل إنه الذي أخذ المال وشرع في الذهاب لولا أن الرجلين أدركاه، وقد استعمل الأمير معه سلاح الرفق واللين ليستخرج ما عنده وقال له: أنت غريب عن بلدتنا، ولا نريد إلحاق الأذى بك، فإذا رددت جميع ما سرقت من المال وأخبرتنا بالمرات التي سرقت فيها من قبل، وعدناك بأن نعاملك بالرأفة، وقد نطلق سراحك، وكان الأمير ينوي بإطلاق سراحه إطلاق سراح جثته، بعد قتله، فاعترف بأنه قد سرق من البيت نفسه قبل سنة ونصف مالاً كثيراً لتاجر كان أخبره به شريك له من أهل بلدته مقيم منذ سنوات في بلدة الخرارة..

وهنا اكتشف الأمير بعد فوات الأوان أن (عمار) بريء، وأنه آذاه وضربه بل وعذبه العذاب. الأليم، وسجنه السجن الفظيع ظلماً، وبدون أي حجة أو دليل، فكان ذلك مدعاة لتكدر عيشه وتنغيص حياته، وقد سيطر عليه الخوف من عقوبة الله في الدنيا والآخرة حتى إنه عندما رأى ابنه بصحة وعافية خيل إليه أنه سيصاب بعاهة أو يموت بسبب ما فعله بعمار، وإنه لذلك لا بد من أن يسعى إلى أن يجعل عماراً يسامحه ويغفر له خطأه.

لا سيما أنه استشار القاضي وغيره من العلماء عن كيفية التنصل مما فعله بعمار فكلهم قال: إن ذلك لا يمكن إلا إذا

سامحك (عمار) وغفر لك ما فعلته به، ولكن أين له به؟ وكيف يعرف مكانه؟ وهو لا يدري أين ذهب، ولم يحدثه عن ذلك محدث، بل إنه لم يعرف حتى أين ذهب في ذلك اليوم الذي أطلق سراحه من السجن بسبب ولادة ابن الملك.

وقد سأل السجان فذكر أن آخر العهد به أنه خرج من البوابة الخارجية للسجن، ولم يقل للملك إنه دفعه دفعاً عندما خرج من الباب الداخلي، وإنه سحبه مع أحد أعوانه سحباً حتى أخرجاه من الباب الخارجي.

وقد صار الأمير يتلهف على أن يجد عماراً ليسامحه، وكانت زوجته أكثر منه حرصاً على ذلك، لأنها خشيت أن تشمل العقوبة التي ستحل بالأمير على ظلمه لذلك الرجل أهله وولده.

الصنعة القديمة:

هذا ما كان من أمر الأمير، وأما ما كان من أمر عمار فإنه عوفي بسرعة بسبب صحة أصيلة في بدنه، وبسبب غذاء المحسن عبد الله بن مؤمن وتعهده بذلك، فتحركت في نفسه النخوة وألا يبقى عالة على هذا المحسن الكريم، وهو رجل يعرف صنعة مربحة هي النجارة، فصار يتمشى في الحي الذي

هو فيه، يبحث بهدوء عن نجار من النجارين فلم يجد حتى جاوزه ووجد نجاراً في منجر بارز للعيان، وصاحبه هو شيخ قد ناهز الستين، وحالة المنجر تدل على أنه كان يعمل فيه عدد من النجارين غير أنه الآن ليس فيه إلا هذا الشيخ..

سلم عليه عمار وسأله عن رواج صنعته فعلق على كلامه بكلام عام، إلا أنه ما أن دخل عمار في تفاصيل هذه الصناعة وأسماء أدواتها الفنية فيها حتى عرف الشيخ النجار مطروح –وهذا اسمه- أنه أمام نجار عارف بالصنعة، فقال لعمار: إنني مهموم الآن لأنني أعطيت وعداً لقوم بأن ننجر لهم أبواباً في وقت معين، وهذا الوقت موشك على النفاد، وكان عندي عاملان مرض أحدهما وذهب إلى أهله خارج مدينة الخرارة، أما الآخر فقد اختصمت معه وطردته لأنني اكتشفت أنه يعمل العمل في بعض الأحيان غير متقن، يتعمد بذلك أن يؤذيني وينفر عني عملائي الذين عرفوني بإجادة الصنعة والإخلاص، وذلك حتى تسوء سمعتي عندهم.

قال مطروح: وأنا الآن إذا كنت تستطيع أن تعمل معي فإنني مستعد بأن أعطيك أجراً حسناً شرط أن تعمل في الليل والنهار، وسوف أقدم لك الطعام والماء مع الأجرة مقابل ذلك، حتى أستطيع أن أنجز العمل الذي اتفقت عليه مع أهل الأبواب..

فوافق عمار مسرعاً، ولكنه كرر قوله: لابد أن توفر لي الطعام والمأوى، ثم عرف أنه تسرع في ذكر ذلك فقال: الواقع أن وجودي في بيتك وفي منجرتك أدعى لإنجاز العمل، وإلا فليس لتوفير المنزل عند النجار كبير أهمية، قال ذلك وهو يقصد ما كان عرفه من حال النجارين في بلده، ففرح (مطروح) بذلك وقال له: لا بد لي من شرط عليك، وهو أن أجعلك تعمل في داخل بيتي بحيث لا يراك أحد وأنت تعمل، ولشرط آخر ألا تخرج من البيت إلا لأمور ضرورية وفي الليل خاصة، لأن الناس لا يريدون أن يعمل في الأبواب هذه إلا أنا، وقد اشترطوا عليّ ألا تمسها أيدي العمال من أجل إتقان الصنعة.

وأضاف مطروح قائلاً: ولشيء آخر، وهو أن أميرنا لا يحب أن يكون عند أرباب الصنائع أحد من الغرباء، إلا إذا أخبروه بهم. ووافق على ذلك..

وكان هذا هو ما يريد (عمار) فقال للرجل: إنني أوافق على ما ذكرته.

دخل الرجلان إلى داخل بيت (مطروح)، فأراه غرفة في الفناء الخارجي واسعة تصلح للعمل وللسكن وقال له: هذه غرفتك التي سوف تعمل فيها وتسكن فيها أيضاً، ثم أراه مستودعاً عجب عمار من كثرة ما فيه من أدوات النجارة وأنواع

الخشب والقطع الخشبية.

وقال مطروح: ستخدمك جاريتي (سعيدة)، وهي مملوكة سوداء كبيرة السن، ولكنها مدبرة خبيرة بكل ما في البيت، ولا تستطيع الحرائر أن تطبخن كما تطبخ، وقد اعتمدت عليها منذ أن ماتت زوجتي (عليا) قبل ثلاثة أعوام، ولم تخلف لي إلا بنتاً واحدة هي (سبيكة الذهب)، ولكنها بنت غريرة مدللة، لا يعتمد عليها في تصريف شؤون البيت.

ثم نادى (سعيدة) وعرفها بالرجل، وقال: هذا نجار جاء ليساعدني فلا تقصري في خدمته، وإياك إياك أن تخبري أحداً بوجوده أو أن يطلع على ذلك أحد..

ولم يسأل عمار عن حال بنته (سبيكة الذهب)، وإنما قال (مطروح): أما بنتي سبيكة الذهب فإنها نائمة الآن وكان الوقت ضحى، وإلا لعرفتك بها ولكنك ستعرفها فيما بعد غير أنها لا يصح الاعتماد عليها فيما تريده من الأكل والشرب فذلك عند سعيدة.

أخذ (عمار) يعمل في مهنته التي يتقنها، وهي مهنة النجار ويقول في نفسه، إنها ليست أماناً من الفقر فحسب، ولكنها أيضاً أمان من الاتهام بالسرقة، ولو كنت بقيت عليها في بلدي

لما حصل عليَّ ما حصل، ثم عاد إلى نفسه باللوم والتقريع على فكرته في تركها وترك بلده إلا أنه عاد يقول: ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ ويتذكر الحديث: (لو قدر غير ذلك لكان).

سبيكة الذهب:

استيقظت سبيكة الذهب من نومها متأخرة على ما جرت به عادتها، ولم تبال بالعامل الذي يعمل في الغرفة الواقعة في والفناء المكشوف من البيت؛ إلا أنها ظنت أن الذي فيها هو العامل الذي كان عندهم أو هو مثله، وذلك أنها عرفت عاملاً كان عندهم من قبل كان اسمه (مليح)، ولكن كانت حقيقته غير ذلك، ولذلك لم تكن تسميه إلا (قبيح) حتى إن والدها لامها على تلك التسمية، وذكر أنه اشتكى من تلك التسمية، ولكنها لم تخبر والدها بجلية أمره حتى لا يكون في الأمر مجال للتساؤل عن أشياء لا يصح الحديث فيها..

كان ذلك العامل (مليح) بعكس ما يدل عليه اسمه بالفعل، فهو إلى القصر ما هو، ولكنه قصير الرقبة جداً، ذو بطن بارز رخو، وعجز عكسه ضامر حتى يكاد يشبه مؤخرة

الضفدع، وكان جزء من مقدمة رأسه أصلع رغم كونه لا يزال شاباً.

ومع هذه الصفات غير المرغوبة عند النساء فإنه كان عديم الذوق، جاف الطبع، يتعرض دائماً لهذه الفتاة التي هي كاسمها (سبيكة ذهب)، فيتغزل بحسنها وجمالها بعبارات منافية للذوق، خالية من التورية أو المجاز.

والذي أزعجها أنه كان يترك عمله في هذه الغرفة المنعزلة من البيت إذا أمن أن صاحبه (مطروح) لن يراه؛ لأنه خرج لبعض شأنه، ويحاول أن يتلصص داخل البيت لينظر إلى (سبيكة الذهب)، وحتى العبدة (سعيدة) كان يؤذيها إذ يدخل البيت مع أن صاحبه قد كرر عليه القول بأن دخوله إلى البيت محظور، وأنه لا يجوز أن يتجاوز الغرفة التي يعمل فيها إلا مجتازاً الطريق في الفناء المكشوف أو الحوش، ولكنه لا يلتزم بما يجب أن يلتزم، لهذه الأسباب طرده (مطروح).

وكان قبله عامل أخف منه حركة وأقل جرأة في التطفل ولكنه كبير السن، أعور العين، متسخ الثوب، حتى وإن لبس ثياباً مغسولة لتوها، أو هكذا بدا الأمر لسبيكة الذهب من كثرة ما رأته كذلك.

لذلك عندما سمعت عاملاً يعمل في الغرفة المنعزلة من المنزل ظنت أنه مثل هذين العاملين، فلم تتطلع حتى إلى معرفة حالته لاقتناعها بأنه ليس فيها ما يستحق الاهتمام.

وقد مضى اليوم الأول له في البيت، ولم يخرج من الغرفة إلا عجلاً من دون أن ترى (سبيكة الذهب) خروجه مثلما أنها لم ترَ دخوله.

ثم مضت أيام أربعة على هذا الحال كان الشخص الوحيد الذي يحدثه غير النجار الشيخ (مطروح) هي الجارية (سعيدة)، فهي تحضر إليه طعامه وشرابه كما كانت تفعل مع العمال الذين قبله، وكانت (سبيكة الذهب) تعجب من صبرها عليهم، والتردد إليهم.

وكان (عمار) سعيداً بعمله، فقد انكب عليه بكل قوة وإخلاص، وذلك أنه خلصه من الفراغ، وبل وأحيى في نفسه الأمل في أن يعود إلى بلده، ليعود نجاراً كما كان أبوه وجده من قبل؛ غير أنه أبعد هذا الهاجس هاجس العودة إلى بلده عن فكره قائلاً لنفسه: كل أقاربي والذين يعرفونني يعلمون أنني سافرت من أجل أن أحصل نقوداً لا أحصل عليها بالنجارة، فكيف أفعل إذا عدت إليهم فقيراً؟

ثم قال لنفسه: في المثل: ((... الحظ يُمرض ولا يموت))، وحظي مرض، ولكنه ما مات لأن الله سخر لي (عبد الله بن مؤمن) حتى نشطت، ثم سخر لي هذا النجار الذي جعلني أنجر من دون أن يراني الناس، وأحصل على الأجر والطعام الطيب.

وفي يوم من الأيام ربما كان السادس أو السابع لحلوله في البيت كانت العبدة (سعيدة) قد غسلت ثوباً لـ (سبيكة الذهب) وعلقته في الفناء المكشوف (الحوش) على أمل أن تحضره إذا نشف إليها غير أنها نسيت فذهبت (سبيكة الذهب) لإحضاره، فلمحت عماراً وهو يجد في عمله دون أن يراها، ولم ترَ منه أي شيء من ملامح وجهه ولا صورته، وإنما لمحت هيئته وشخصه، فعجبت من كونه ليس كالعمال الذين عرفتهم، فهو رشيق إلى درجة النحافة، وهو مجد في عمله لا يتوانى حتى إنه لم يلتفت إليها، وهذا بخلاف العمال الذين سبقوه الذين كانوا يتركون عملهم إذا سمعوا وقع خطوات أو كلمات، أو حتى عطسة أو سعلة عسى أن يروا من تكلم أو عطس أو سعل.

ولم تلق بالاً له، بل لم تعتن أية عناية لترى ما وراء شخصه الذي رأته، ومع ذلك تطلعت إلى أن ترى وجهه، أو ترى شخصه واقفاً من باب حب الاستطلاع، ولكنه ليس كمن سبقوه من

العمال الذين كانوا يتمشون في الفناء ليطردوا السأم والملل فيما يقولون عن نفوسهم.

ولكنها لم تحظ منه بذلك.

ومثل أي شيء غريب أو غامض يراه الشخص لأول مرة حتى إن كان تافهاً في حد ذاته، أو كان الداعي إلى رؤيته تافهاً، فإنها قد تولدت عندها رغبة بأن ترى منه ما ذكرنا، ولكنه خيب ظنها بجده واجتهاده، وعدم تطلعه إلى غير عمله.

وكان عمار إذا ما أراد أن يمد ظهره أو يقاوم السأم والملال نهض واقفاً داخل غرفته، وتمطى ومد يديه ثم عاد إلى عمله من غير أن يلاحظه أحد، بل إن (سبيكة الذهب) صارت تصغي إلى حركاته وعمله من باب الاستطلاع أيضاً فخيل إليها أنها لا تنقطع أبداً، ولم تنصت ولا مرة واحدة حتى ذلك الوقت فلا تسمعه فيها يعمل.

ذات صباح:

وذات صباح كانت (سبيكة الذهب) قد فكرت بهذا العامل الذي لم يظهر منه أي اهتمام بها ولا بغيرها، مع أنها قد راجعت نفسها وقالت: كيف يهتم بي ولم يرني، إلا أن العكس هو الصحيح، فهي قد اهتمت به قبل أن تراه رؤية واضحة، بل

إنها شعرت بأنها قد مالت إليه، وعجبت من ذلك أشد العجب، فقد عرفت منذ أن بلغت مبلغ النساء أن المرأة لا تميل في الغالب إلى الرجل من أول نظرة، بل لا بد أن تسبق ذلك نظرات، وربما كلمات فضلاً عن اللقاءات والأحاديث، ولذلك سفهت نفسها بأنها تشعر بشيء من الميل له من دون ذلك، فعزمت على أن تراه على حقيقته، ولا مانع عندها من أن يراها مثل غيره من العمال ورجال آخرين لم تؤثر رؤيتهم لها بشيء.

وفي صباح تلك الليلة صحت من نومها مبكرة خلاف العادة، وكان عمار قد بدأ منذ وقت قريب عمله اليومي، فمرت من أمام غرفته وقد ثبتت عينيها فيها؛ بل فيه قائلة وهي لا تكاد تقوى على الكلام: إنني أبحث عن الجارية سعيدة..

عندما رفع رأسه إليها تاركاً القدوم يقف في يده عن الرفع والحط التقت عيناه بعينيها، فشعرت بأن شيئاً ما قد دخل في عينيها وتجاوزهما إلى قلبها، لذلك لم تجد علاجاً له إلا بأن تتقهقر وتخرج من الغرفة.

لم يكن خروجها إرادياً هذا ما أجابت به نفسها عندما شعرت أنها لامتها على عدم البقاء أمامه ولو للحظات أخرى، وليس هذا - على أهميته عندها - بالأهم، وإنما الأهم أنها شعرت أنه ليس كالعمال السابقين، بل ليس كالرجال

السابقين الذين عرفتهم.

وقد أسرعت إلى غرفة لها وانزوت فيها حتى إنها لم تجب على نداء الجارية سعيدة التي كانت تسألها عما إذا كانت تريد الفطور.

كان كل ما تريده أن تخلو بنفسها لتستعيد التفكير بتلك اللمحة القصيرة التي واجهته فيها، إلا أنها عادت إلى نفسها قائلة: إنها فتاة جميلة، وإنها غنية ومدللة بالنسبة إليه هو الذي لا يزيد على كونه عاملاً من العمال، همه أن يحني ظهره على عمله ليحصل على أجره.

أما هو فإنه وقد شغله الهم والغم الذي كان فيه عن التفكير بأي شيء يتعلق بالجنس الآخر، فإنه لم يلق لهذه الحادثة بالاً، وإنما ظن أن هذه هي (سبيكة الذهب) التي حدثه عنها (مطروح)، وأنها لا تزيد على أن تكون فتاة معتادة من الفتيات.

ومع ذلك رأى أنه وهو مستمر في أداء عمله يفكر بأنها حتى وإن لم تكن كذلك وقد رآها من تلك اللمحة ليست كذلك، فإن بينه وبينها سداً بل سدوداً، أعظمها وأهمها ما هو فيه الآن من حال تجعله يجتهد حتى يحصل على أجر يكفيه

لإتمام ما بدأ به من مغامرة لن تنتهي به دون الوصول إلى البحر والغوص على اللؤلؤ فيه.

لذا أبعد التفكير فيها عن ذهنه كلية، ولم يستدع ذلك منه أي مجهود.

وهي كذلك لامت نفسها لأن حبه لم يتغلغل حتى الآن في كيانها، وإنما لامس شعورها، فخرجت من غرفتها وطلبت أن تحضر الجارية لها طعام الإفطار، وجعلت تأكل إلا أنها في أثناء الأكل شعرت كأنما غصت باللقمة في حلقها، إذ تذكرت تلك اللحظة التي التقت عيناها بعينيه، ثم ازدردت اللقمة وتابعت الأكل.

القلبان الظامئان:

قلب عمار الذي أضناه التعب والنصب والعذاب المقيم حتى حجب عنه التفكير بمتعة أخرى غير الخلاص مما هو فيه، وقلب (سبيكة الذهب) الذي أضناه انتظار العثور على قلب يواسيه.

ولكن ابن آدم عجيب الأمر في خلقه وفي خلقه، فما أن يرتاح مما يعذبه ويقلقه حتى يسعى إلى إكمال حاجاته الحسية التي فيها قوام جسمه مثل الطعام والشراب واللباس، حتى إذا

حصل له ذلك سعى إلى ما هو فوق ذلك، وأهمه الحب والتطلع الغريزي إلى الجنس الآخر؛ سواء أراد أو لم يرد، وسواء شعر بذلك أو لم يشعر، وقد تطول غفلته لا لكونه لا يحتاجه وإنما لكونه لم تتهيأ الظروف إلى بلوغه.

فقد شبع (عمار) من الطعام الجيد، ونال الراحة على العمل الذي يحبه، والمأوى الذي لا يتطرق إلى ذهنه الخوف فيه، لذلك استيقظت عنده العواطف وإن لم تثر، وإنما بقيت مستعدة لذلك.

وقلب (سبيكة الذهب) كان قلقاً متطلعاً إلى ما يستقر عليه، ولكن لم يجده حتى رأى في ذلك اليوم - ذات يوم - عينين يهديهما قلب هو الذي يريده ويهواه، لذلك ما أن غابت الجارية خارج المنزل لبعض شأنها حتى أسرعت سبيكة الذهب إلى عمار وقالت له بجرأة أشد هذه المرة لأنها شعرت أن تلك اللمحة القصيرة السابقة قد مهدت لها السبيل إلى الجرأة عليه، ولم لا؟ وهي قد أثرت فيها أكثر ما أثرت فيها عشرات النظرات إلى غيره.

قالت له: ألا تريد ماءً؟

وهنا رفع إليها رأسه فملأ عينيه هذه المرة منها مثلما

ملأت عينيها منه في المرة الأولى، وهذه المرة كان القلبان الظامئان متساويين في الإصابة أو يكادان.

وكاد يقول لها: إنه لا يريد ماءً ليس لأنه كذلك لا يريد الماء، وإنما من أجل أن تظل أطول فترة ممكنة واقفة على رأسه، ولم يفطن إلى أنها ستعود بالماء، وإنما قال لها: نعم، وعند ذلك أولته قفاها؛ ذاهبة لإحضار الماء فتطلع إلى مشيتها، وإلى تقاطيع جسمها التي لم تستطع الثياب أن تخفيها، ومد ظهره وهي تبتعد، ثم سمر عينيه في الباب، وعندما أقبلت نهض واقفاً ليستقبلها ويأخذ الماء منها، وإذا به يغلط غلطة عدها صواباً لم يقصده، وذلك أنه تعثر من شدة ارتباكه وهو يتناول الماء منها فسقط الكأس من يدها، وهنا ضحكت وضحك -على خجل- من هذا المنظر، وإن كانت سعادته بانسكاب الماء لا تقل عن سعادتها، فقد أسرعت تحضر منشفة تنشف بها الماء عن الأرض، بل سارعت إلى طرف ثوبه الذي أصابه الماء، وأخذت تعصره، وهو يتأملها ويقول لها: هذا غير مهم، دعيه، وقد تركته بالفعل، ولكنها لم تترك النظر إلى وجهه مع أنه لم يصبه الماء إلا بالخجل، وشيء من الوجل، وظلا كذلك كل منهما ينظر إلى وجه الآخر، وكأنما كانا في غيبوبة وصمت لم يقطعه إلا قولها: نسيت أن آتي لك بماء!.

وذهبت بالفعل، وفي هذه المرة كان التهيب والاحتشام قد زايلهما فتحدثا بفرح ومرح لعدة دقائق لم يقطعها إلا قرع الباب، وإذا بها الجارية سعيدة، فعادت إلى مكانها وعاد إلى عمله.

لقد شعر بشيء مفرح لذيذ جمع بين سعادة غريبة لم يألفها من قبل، وبين سعادة معروفة له، بل إنه قال في نفسه: إنها مجموع السعادات في العالم.

وقال وهو يتخيل وجهها النضر بعد أن ذهبت عنه: لقد صدق أهلها الذين سموها (سبيكة الذهب)، ثم عاد يقول في نفسه: وما الذهب؟ حتى تشبه به؟ لقد رأيت مقداراً كبيراً منه عند جارنا، وصديق والدي الثري صالح، فرأيته حجراً لامعاً لا قلب له، أما هذه فإنها محبة وشوق وجمال وفتنة قد تجمعت جميعاً حتى عجزت الأسماء عن إيجاد اسم خاص بها مناسب لحقيقتها.

العيش الهني:

تعددت الجلسات القصيرة التي كانت تتم بينهما، وزايلهما الاحتشام، وحل محله الوئام، ولولا أن (عماراً) يمنع سبيكة الذهب من إطالة الجلوس عنده لطال، ولكنه يذكر

أن وقته مملوك لغيره، وهو مطروح النجار والدها، وأنه بحاجة أيضاً إلى إنجاز عمله وقد أقنعها بذلك..

وصار رغم كونه لا يريد أن يفارقها سعيداً بمجيئها أو لمجرد رؤيتها كل يوم، وأحياناً أكثر من مرة في اليوم، فاجتمع له العمل والأجر وراحة البال، ثم هذا الغذاء العاطفي الذي لم يكن حتى يتخيله، فشعر بأنه يعيش عيشاً هنيئاً بعد عيش الشقاء والعناء؛ بل العذاب الأليم في السجن.

الروح المعذبة:

في صباح يوم من الأيام كان فيه مطروح النجار وجاريته سعيدة غائبين عن البيت، بكرت (سبيكة الذهب) بالحضور إلى غرفة عمار وهو يعمل، وقد بانت على وجهها أمارات الحيرة، وتغيرت سحنتها، وكأنما كانت على وشك الإقدام على مخاطرة غير مأمونة العاقبة، فقال لها (عمار): ما بك اليوم يا (سبيكة)؟ وكان يختصر اسمها أحياناً فلا يناديها إلا بسبيكة؟

فحاولت أن تغير من مظهرها الجاد، وجعلت تبسط أسارير وجهها أمامه، وتقول وهي تحاول الابتسام أيضاً ولا تستطيع: سوف أخبرك - يا عمار - بشيء ولولا أنني لاحظت أن

قدري عظيم عندك، وأن منزلتي في قلبك لا تدانيها منزلة فتاة أخرى لما أخبرتك.

إنني أظن - يا عمار - أنك قد فكرت في الاقتران بي، ولو من باب الحلم مثلما لاحظت أنني يمكن أن أكون فكرت بالاقتران بك، ولذلك وجب علي أن أخبرك بما لم أخبر به أحداً غيرك.

وهنا ترك عمار قدومه، واعتدل ظهره، وثبت عينيه في عينيها ليسمع ما تريد أن تقوله، فإنه وإن كان تافهاً فإنه يتعلق بحبيبة له، والمرء يحب أن يسمع كل شيء حتى التافه عن حبيبه.

ولاحظ أنها في هذه المرة عندما ثبت عينيه في عينيها لم تتغير هيئتها عما كانت عليه من الجد، خلاف المرات السابقة.

قالت سبيكة الذهب: اعلم يا عمار أنني لست ابنة النجار مطروح رغم كونه يدعوني دائماً ابنته، وأنني أدعوه والدي، ولكن عماراً لم يكن لاحظ غير ذلك، وإنما أنا ابنة رجل وامرأة وصلا إلى هذه المدينة قادمين من مدينة بعيدة، وكانت أمي حاملاً بي وقد أوشكت على الولادة.

كان والدي تاجراً، وكان معه بعض النقود، واستأجر

بيتاً في هذه المدينة، وصار يبيع ويشتري لفترة قصيرة تعرف خلالها على بيت واحد من جيرانه، فصار نساؤه يزرن أمي التي كانت لا تستطيع الخروج لأنها على وشك الولادة، ولكونها لا تعرف أحداً في المدينة ولا يعرفها أحد.

ثم أصيب والدي بمرض شديد لم يمهله أكثر من ثلاثة أيام لم يكن له من يمرضه غير أمي، ولم يكن لها من يواسيها بل من يعرف أمرها إلا نساء من أهل ذلك البيت في جوارها، وقد مات بين يديها على هذه الحالة، وهي على وشك الولادة، وما أن تحققت موته حتى شعرت بالطلق وولدتني من دون أن يكون عندها أحد، وأصابها نزيف من الولادة وربما من عظم المصيبة أيضاً فماتت، وعندما جاءت امرأة من بيت جيرانها وجدت أبي ميتاً وأمي بجواره ميتة وأنا حية، ففزعت المرأة إلى أهل بيتها الذين أسرعوا لمعرفة ما حدث، ولكنهم لم يشيعوا الخبر لكي لا ينالهم ضرر من أحد يأتي يطالبهم بمال لم يجدوه، أو حتى قد يتهمهم بأنهم تسببوا في موت والدي من أجل الحصول على ما معه.

فذهب رب ذلك البيت إلى القاضي وكان صديقاً له فقص عليه القصة، فأمر القاضي بتجهيز أبي وأمي وأن يدفنا في قبر واحد كما يدفن الغرباء.

وأمر الجار صاحب البيت وهو رجل ثري ثقة أن يحصي جميع ما وجده مع والدي من المال حتى يحفظه القاضي عنده إلى أن يأتي من يطالب به لمن يثبت شرعاً أن له قرابة به، أو أن أكبر وأبلغ الرشد.

ثم بحث القاضي عن امرأة ولدت حديثاً ومات ولدها من أجل أن يعهد إليها بأن ترضعني وتربيني مقابل مال من مال والدي المحفوظ لديه.

وقد وجد امرأة النجار مطروح كذلك، فهو رجل حسن الحال، رخي البيت، وامرأته امرأة صالحة تقية، فعهد بإرضاعي وتربيتي إلى المرأة، وقال: إذا بلغت البنت وكانوا سموني (سبيكة الذهب بنت أبوها) قبل أن يتبناني مطروح سنتين، واستغنت عن الرضاع فإني سوف أقطع النفقة التي أعطيكم إياها لأنها تأكل مما يأكل منه أهل البيت.

كانت (سبيكة الذهب) وهي تتكلم بهذا الكلام وتوجهه إلى الرجل الذي أحبته ولا تدري ماذا يكون عليه رده إذا سمعه كمن كان قد حمل حملاً ثقيلاً أعجزه عن الحركة ثم تخلص منه.

فقد تنفست الصعداء واستندت إلى حائط الغرفة رافعة

رأسها كأنما تنظر إلى السقف.

وكأنما نسيت حتى أنها بحضرة حبيبها، ومنى نفسها، وحتى سأل نفسه فيما بينه وبين نفسه عما إذا كانت بالفعل قد ملته وأرادت أن تهجره فلفقت هذه القصة التي لم تنتبه بعد إلا أنها تنهدت ثانية وواصلت قائلة:

وعندما بلغت سنتين من العمر، وكانت أمي بالتبني قد أحبتني ولم ترزق بولد، فذهبت مع زوجها مطروح النجار إلى القاضي، وأعلنت له أنها تقبل تربيتي وإطعامي وكل ما أحتاج إليه من نفقة من دون أن تأخذ مقابل ذلك شيئاً، بل إنها قالت: إنها أحبتني كما تحب المرأة ابنتها ولا تتصور أنها تستطيع أن تعيش من دوني.

وكان القاضي رجلاً عاقلاً حازماً قد طلب من الجيران، الذين اطلعوا على وفاة والدي وأمي وعلى حالتي ألا يخبروا أحداً بذلك حذراً من عقابيل ذلك من أن يؤثر على مستقبلي، كما طلب من مطروح وزوجته ألا يذكروا ذلك لأحد حتى يظن الناس أني ابنة مطروح وزوجته (عليا) من أجل ألا يؤثر ذلك في مستقبلي.

وواصلت حديثها قائلة: وكانت والدتي (عليا) امرأة عاقلة

متدينة ربتني أحسن تربية، وبعثت بي إلى امرأة كانت تعلم البنات أمور دينهن، ولم أكن أعرف إلا أنها أمي، وأن (مطروحاً) أبي، فكانوا ينادونني بنتنا وأناديهم بأبي وأمي، وقد ماتت أمي (عليا) قبل ثلاث سنين، وعندما بلغت السادسة عشرة، وكان ذلك قبل عام من مجيئك عندنا أرسل إليّ القاضي امرأة أمينة عنده طلب منها أن تدعوني إلى بيتها وأن يحضر عندها، وكان قد أسن وقارب أن يتقاعد عن القضاء وقال لي: إنني يا ابنتي (سبيكة الذهب) قد بلغ مني السن ما بلغ، وإنني أحتفظ بمال لك حافظت عليه واستثمرته ونميته محبة في الخير لك، وامتثالاً لأمر الله في حفظ مال اليتيم، والآن قد بلغت الرشد، وقد أحببت أن أخبرك يا ابنتي بشيء، وأرجو ألا يصيبك ما سأذكره لك بأذى، ولكن لابد منه لإحقاق الحق.

إنك يا سبيكة الذهب لست بنتاً لمطروح ولا لزوجته (عليا)، ولكنك ابنة لرجل تاجر كل ما يعرف عنه أنه من أهل البلدة الفلانية، وذكر اسم بلدة كان عمار قد سمع بها، وأنه حصل عليه كذا وكذا، وقد عرفت أنك فتاة عاقلة وأن والدتك (عليا) رحمها الله قد ربتك تربية حسنة، ولذلك سأخبرك بذلك ولأسلم لك المال الذي لك عندي وهو مال

كثير، ولأعلمك الحقيقة، ولكنني أرجو ألا تخبري أحداً لئلا يؤثر ذلك على مستقبلك.

وقالت: قال القاضي: حتى والدك مطروح لا ينبغي أن يعرف بذلك لئلا يطمع بالمال، أو يغالي في مهرك عند من يخطبك !!!.

قالت سبيكة الذهب: وعندما سمعت كلام القاضي مقروناً بالتفصيلات الواضحة عرفت أنه حق، ولم أقل عنده إلا أنني سوف التزم بما ذكره.

غير أنني بعد ذلك فكرت في أمري وكيف يكون مستقبلي عندما يعلم من يتقدم لخطبتي لكوني البنت الوحيدة لمطروح النجار فيعلم أنني مجهولة الأبوين، وربما يصدق أنني بنت زنا، فهكذا يحلو لبعض أهل الشر من الناس أن يفسروا الأمور تفسيراً سيئاً.

ولقد فكرت قبل أن تأتي عندنا أن أقتل نفسي وأن أستريح من العذاب النفسي الأليم الذي صار ينتابني، ولكنني ذكرت أقوال أمي (عليا) - أقصد أمي بالتبني رحمها الله وجزاها عني خيراً - التي غرستها في نفسي وهو أن الله سبحانه تعالى لا يغفل عن عباده فيحاسب المسيء على إساءته ويجازي

المحسن بإحسانه، ويأتي من لطفه بما لا يخطر على البال.

وكنت أحفظ بيتين من الشعر طالما سمعتها رحمها الله تنشدهما:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل

خلوت ولكن قل عليَّ رقيبُ

ولا تحسبن الله يغفل ساعةً

ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب

لذلك طردت عن نفسي هاجس الانتحار، وصرت أقرأ القرآن كلما أحسست بالضيق، فيسري عني ما أجده لا سيما الآية الكريمة: ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ وأجدني أذكر قول أمي عليا رحمها الله: إن لطف الله يأتي بما لا يخطر على البال.

وعندما أتيت إلى بيتنا وصرت تعمل عندنا وتعرفت عليك يا عمار، وانصرفت بكليتي إليك حتى اعتقدت أن مجيئك إلينا هو من لطف الله لا سيما أنني لمست من أفعالك وأقوالك ما يطابق ما ذكرته أمي علياء من وجوب التمسك بالعفة والصبر عن المحرمات في سبيل الحصول على المطلوب.

ولكنني رأيت أنه لا بد من أن أخبرك بحالي لئلا تفاجأ

إذا ما قدر لنا أن نقترن بشيء لم يخطر ببالك، ولم يدر في خيالك، وقد تقول: إنك لم تخبريني إن لم تقل إنك غشيتني.

وقالت: وفوق هذا أخبرك قبل أن تفكر بالاقتراب مني قبل الاقتران أنني فتاة مجهولة النسب والحسب، ولكنني لكيلا أظلم نفسي، ولا أعطيها حقها الذي منّ الله به عليها أخبرك أنني أحسن وأكثر عفة من كثيرات من ذوات الحسب والنسب اللاتي نعرف نحن النساء من أخبارهن وأفعالهن ما لا يعرفه الرجال.

ثم إنها وقد شعرت أنها قد قالت لعمار كل ما تريد أن تقوله له انهمرت دموعها مدراراً وكأنما كانت تغالبها قبل ذلك، وأحست أنها يجب أن تتركه لكي يقرر ما يريد أن يقرره نحوها، ولكي تنصرف إلى غرفتها فتخلو فيها مع دموعها وأشجانها.

الحبيبان يتعذبان:

عندما انصرفت (سبيكة الذهب) عن عمار انتابه فزع ممزوج بالحيرة مما سمعه منها، فهو لم يكن يفكر في أن شيئاً من هذا حادث، بل شعر بأنها ابنة ذلك النجار المدللة، وهو لم يفكر مطلقاً قبل ذلك في ألا يرتبط بها، بل إن العكس هو

الصحيح، وهو أنه كان مستمراً في أفكاره في الزواج منها وتكوين أسرة سعيدة، غير أنه كان متردداً في ذلك خوف أن تتأخر عليها عودته من رحلته التي كان قرر ألا تنتهي إلا بالبحر؛ حيث يجرب حظه في الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي عسى أن يعثر على درة ثمينة يكون فيها غناه، وعند ذاك - كما كان قد فكر وقدر - يعود إلى بلدة الخرارة، ويعقد قرانه على حبيبته (سبيكة الذهب)، وهو واثق مما رآه منها بأنها تحبه، وتود الاقتران به، غير أنه لا يضمن أن يحدث شيء يغيرها بعده، فأحياناً يفكر في أن يتزوج منها، ثم يذهب إلى حيث يريد ثم يعود إليها، وذلك ليضمن عدم خروجها من يده، غير أن هذه الفكرة صعبة التحقيق.

فليس من المعقول أن يتركها بدون نفقة إن لم تطلب منه أن يفتح لها بيتاً مدة وجوده في بلدتها.

ثم ماذا يفعل لو حبسه حابس ليس في ذهنه ولا تقديره كما فعل عندما دخل السجن، وبقي فيه مدة طويلة في بلدة الخرارة؟

ثم إن هناك شيئاً آخر عزم على أن يصرح لها به مثلما صرحت هي له بحالتها، وهو أن يخبرها بأنه كان في السجن لمدة طويلة بتهمة السرقة مع أنه لم يسرق، وأنه خرج من السجن

محطماً لولا عطف أحد أهل الخير عليه الذي آواه وأطعمه حتى قدر على السير ثم العمل، وإنه لذلك لا يملك شيئاً من حطام الدنيا غير ما يتقاضاه من أجر من والدها (مطروح).

ويقول في نفسه: ماذا لو أثر هذا في نفسها فعافته لأجل هذا، وربما لا تعتقد ببراءته، فلا تصدقه ما دام أنه كان بالفعل في السجن لمدة طويلة.

انتابته هذه الهواجس والأفكار، فكف عن العمل في النجارة، وساد غرفته هدوء تام.

كانت (سبيكة الذهب) رغم ما عانته وما كانت تعانيه من مشاعر مؤلمة لا يزال عمار في ذهنها، وما زالت تتابع بفكرها حركته لتعرف ما إذا كانت لها علاقة بما قالته له وما يتخذه من قرار نحو ذلك.

ومن ذلك أنها لم تعد تسمع حركة عمله في النجارة في الغرفة، فانتابها شعور مفزع بأنه ربما تعجل وهرب من عندهم حتى قبل التفكير فيما قالته، وقبل أن يقرر ما ينبغي له أن يفعله بهدوء وتمهل.

وقد استمر هدوء الغرفة وكأنما ليس بها أحد، فكاد يجن جنونها، فجففت دموعها ودعت الجارية (سعيدة) متظاهرة

بأنه لا شيء فيها وقالت لها: إنني لا أسمع حركة عمل في غرفة (عمار)، فانظري أهو موجود فيها أم ذهب إلى خارج البيت، وكأنما فطنت سعيدة إلى شيء كان غائباً عن تفكيرها إذ قالت لسبيكة الذهب: صحيح أنه على غير عادته ما يشتغل، وأسرعت إلى الغرفة فوجدته منكساً رأسه كمن به صداع، ولذلك لم يفطن لها ولم يرفع رأسه، فعادت إلى (سبيكة الذهب) لتخبرها بحاله وما رأته عليه من التفكير أو التعب لا تدري.

ارتفعت الشمس وقاربت الزوال، ولم تسمع (سبيكة الذهب) أي أثر للعمل من غرفة عمار، وذهبت الجارية سعيدة بغدائه كالعادة، ولكنه رده ذاكراً أنه لا يشتهيه، وهذا شيء لم يعهدوه منه من قبل.

وتقبلت (سبيكة الذهب) ذلك على أنه أمر طبيعي، لكن الفزع انتابها عندما قالت لها سعيدة بعد ذلك: إن عماراً ليس في الغرفة، فخيل إليها أنه غادر الدار لغير رجعة، وأنه لا يطيق أن يراها، وأنها ربما تكون فقدته إلى الأبد، ولذلك جن جنونها ولم تستطع أن تكتم ما بها عن الجارية سعيدة، بل صارت تطلب منها بإلحاح، بل وتصرخ في وجهها أن تخبرها أين ذهب عمار، بل أن تخرج من الدار لكي تعرف أين اتجه،

وكانت نفسها قد حدثتها أنها هي سبب ما حل به، ولذلك ينبغي لها أن تتبعه وترده إلى بيتها، وإن لم تستطع ذلك تذهب تتبعه إلى أي مكان ذهب إليه.

وراحت سعيدة تحاول الخروج من البيت ولكن سيدها (مطروحاً) ناداها لأمر من الأمور، فرأت عماراً مطرقاً منزوياً في جانب من المنجر عند مطروح فقالت له: أرجو ألا يكون أصابك مكروه، فليست عادتك أن تترك العمل، فقال لها: أنا شعرت بصداع في رأسي، وسكت، فأكمل الكلام مطروح النجار، وقال، جاء عندي عمار وذكر أنه مصاب بصداع حتى إنه لشدته صار لا يبصر موقع القدوم، فخشي أن يحدث عيب في الباب الذي يعمل فيه فجاء إلى هنا، فعجلي اعصري له ليموناً واجعلي فيه السكر وهاته إليه.

ذهبت سعيدة تصنع الليمون ناسية ما كانت عليه حال (سبيكة الذهب) وتلهفها على معرفة ما حل بعمار، فأخبرتها بما قاله لها والدها (مطروح)، فاطمأنت إلى ذلك وعرفت أن ما خافت منه لم يكن وأن خشيتها من أنه قد هرب من البيت غير صحيحة.

وأما عمار فإنه شرب الليمون، وتحدث مع (مطروح) في بعض الأمور مما خفف عنه بعض ما يجده، فعاد إلى منجره في

الغرفة، وصار يعمل فيها عملاً متقطعاً لكنه ما يزال شارد الذهن مشتت الفكر، لا يدري ماذا يفعل تجاه ما سمعه، وقد اجتمع عليه فَقْد حبيبته التي كان يراها في اليوم أكثر من مرة، وهذا الأمر الذي سمعه منها في هذا اليوم، إلا أنه فكر في أمره، وتجلد قائلاً لنفسه: لقد أصبت بأمر عظيم وهو اتهامي بالسرقة فسجنت وعانيت وكنت غريباً وحيداً لا يسأل عني أحد، بل لا يعرف أحد من أهلي أين أكون، ومع ذلك صبرت وصابرت حتى انجلى ذلك كله، وها أنذا في موقع حسن فلأتجلد، ولا ينبغي أن أسارع حتى في الحكم على ما ذكرته (سبيكة الذهب) لا نفياً ولا إثباتاً.

وتجلد بالفعل حتى أوى إلى فراشه في الليل، وعندئذٍ تفرغ لهواجسه وهمومه فطال سهاده، وحارب النوم عينيه، ولكن اتخذ قراراً بألا يجعل أي شيء مما كان بينه وبين (سبيكة الذهب) يتغير، إلا أنه قال في نفسه: وماذا عنها؟ وهل هي لا تزال مطمئنة إلي كما كانت من قبل؟

ثم هجع في آخر الليل، ولو كان لديه علم بحال (سبيكة الذهب) لرأى أنها مثله قد حارب النوم جفنيها، وهدها القلق والخوف من كونها قد نفّرت عنها حبيبها، الذي أحبته من كل قلبها، بل إنها لامت نفسها وكادت ترفع بذلك صوتها لولا

أنها خافت من أن تتهم إذا فعلت ذلك بالجنون، وقالت لنفسها: كيف أكدر صفو حبيبي، وأقول له ما يمكن أن يبقى سراً بيني وبين من يعرفه من القلة من الناس؟ ولماذا أقحمت هذه المشكلة أو المعضلة فيما بيني وبينه ؟.

ثم إنها راجعت نفسها قائلة: إنه لا داعي للوم والتقريع، وإنما يجب النظر فيما أفعله بعد ذلك.

وبعد مخاض عاطفي عسير حضر فيه عقلها مرة وغاب مرات، لتحضر بدلاً منه عواطفها قررت أن لا تذكر الموضوع أمامه مرة أخرى، فلا تسأله مثلاً عن رأيه فيه، ولا تحاول أن تعرف موقفه منه، وإنما ترجع إلى ما كانت عليه منه حتى إذا فرض أنه قال شيئاً أو علق بشيء كان ذلك منه ابتداء عندئذ تستطيع أن تقول له ما ترى في وقته ولا تحمل نفسها إعداد الرد الآن، لأن الرد على ما يقوله ويفعله وهي لا تدري ماذا سيقول أو يفعل.

عذاب القطيعة:

وهكذا غابت عنه، رغما عنها، وغاب عنها رغماً عنه، ولو كان من سجيته أن يدخل البيت فيحييها أو حتى يسأل عنها لفعل، ولكن كان أعطى صاحب البيت وعداً بأن لا يدخل

داخل بيته ووفى بذلك، وحتى لو لم يعط وعداً فإنه ليس من طبعه أن يضايق الناس أو أن يحمل نفسه عليهم.

وهكذا بقيا في عذاب الشوق وعذاب الحيرة فيما يقرر كل واحد منهما تجاه الآخر.

ومضت على ذلك يومان كأنهما بالنسبة إليهما دهران لم ير واحد منهما الآخر، وحتى لم يسمع صوته.

حلّ اليوم الثالث وكان يوم الجمعة، ومن عادة عمار أن يغير ملابسه ويذهب مع مطروح إلى مسجد جامع بعيد يصليان فيه الجمعة، وأما أوقات الصلوات الأخرى فإنهما كانا يصليانها في البيت جماعة أحياناً ومنفردين أحياناً أخرى، وذلك لعدم وجود مسجد قريب من البيت، وقد أفتيا نفسيهما أن الذهاب إلى المسجد البعيد يفوت عليهما جزءاً من الوقت الذي يحتاجانه للعمل.

وترصدت (سبيكة الذهب) خروج (عمار) من البيت، وعرفت قرب خروجه من توقفه عن (النجارة) إذ كان يعمل منذ أن بدأ العمل في هذا البيت كل يوم حتى يوم الجمعة..

وعندما عرفت أنه لا بد أن ينتظر أباها - بالتبني - ، وأبوها كان في داخل البيت، وتبعته وهو ينادي (عماراً)، وذلك

من أجل أن تملأ عينيها منه على بعد، وكان ذلك بالفعل، وعجبت عندما رأت أنه هو الذي عهدته بطلعته المحبوبة ووجهه السمح، وقوامه المعتدل، وكأنما ظنت لطول الفراق الذي لم يزد على ثلاثة أيام في حساب الزمن، وإنْ كان أخذ منها ما يساوي الشهور، أنه قد تغير أو أنها أقنعت نفسها بذلك من أجل أن تسمح لها بأن تملأ عينيها منه.

وهكذا كان، وليس ذلك فحسب، وإنما ملأ هو أيضاً عينيه من عينيها فلم تر في وجهه شيئاً من النقص، ولا من طبعه شيئاً من الانكماش، بل رأته كما عهدته رضي النفس، سمح الوجه، حتى كأنما يدعوها وجهه إلى تقبيله لو كانت تملك ذلك.

وفي يوم السبت طلبت من الجارية (سعيدة) أن تعطيها غداء عمار لتوصله إليه كما كانت تفعل من قبل، وجاءت إليه دون أن تتزين أو تتجمل كما كانت تفعل، وذلك لتشعره بأن ما كانت قالته له هو جد ليس فيه هزل، وأنها لا تزال جادة، وقابلها هو بجد مماثل مراعاة لما أظهرته من حالها.

وكان لقاء معتاداً في الظاهر، ولكنه غير ذلك في الباطن، إذ استأنف الحبيبان به لقاءاتهما المحدودة في زمنها وفي الواقع، وإن كانت عكس ذلك في الخيال.

ثم تعددت لقاءاتهما تلك، فكان يعمل في بعض الأحيان وهي عنده لا يمنعه وجودها من عمله، وكانت تقتنع بذلك معللة نفسها بأن ذلك هو ما بإمكانها أن تفعله، وأن عليه أن يفعل الباقي.

المصارحة:

عندما طال لقاؤهما مرة بعد غيابها عنه نصف يوم، اشتد شوقه فيه وكاد يصيح ويجهر به، جاءت إليه معها فاكهة له، فقال لها: اسمعي يا (سبيكة) ما سأقوله لك، لأنه جد كله، ولا أدري أكنت تنتظرين أن أقوله أو لا، ولكنني سأخبرك أنني صممت على أن تكوني زوجتي إذا وافقت أنت على ذلك، ولن يمنعني من ذلك ما حكيتيه عن نفسك، فضلاً عن القاضي، فأنت حرة وبنت أناس كانوا معروفين بشهادة القاضي، ولا يهمني بعد ذلك ما إذا كان (مطروح) أباك أو ذلك التاجر، فالذي عرفته منك كافٍ لأن يجعلني أطلب القرب منك، والاقتران بك فيما بعد، وأرجو ألا يفرق بيننا إلا الموت فهل تغفرين لي عدم تصريحي لك بذلك قبل اليوم؟

وهل تقبلين زوجاً من لم يسارع ويطمئنك وأنت في محنة عاطفية عظيمة إلى ما كنت تخافين منه؟

قال ذلك وهو يغالب الدمع، وإن كان قد كفه، ولكنها عندما سمعت كلامه لم تستطع أن تكظم دموع الفرح التي تساقطت على خديها، بل إنها سالت على وجنتيها الناضرتين، ولم تستطع حتى أن تولي وجهها عنه وتخرج من غرفته لأنها أولاً لا تريد أن تبعد عنه، وثانياً لا تريد أن تراها الجارية سعيدة وهي كذلك، كما أن أباها (مطروحاً) ربما رآها أيضاً.

وقد وقفت الكلمات في حلقها، وتراقصت المرئيات أمام عينيها، حتى غدا حبيبها الذي كانت لا تمل النظر إليه من خلالها شبحاً أبيض ليس له ملامح خاصة، لا سيما أنه كان أيضاً قد توقف عن الكلام، وكان قبل ذلك قد وقف عن النجارة.

ومضت على ذلك هنيهة قطعها (عمار) بقوله: ماذا تقولين -يا حبيبتي -. ولم تجبه على ذلك إلا بأن زاد نشيجها، ولذلك نكست رأسها.

ثم صبرت أيضاً هنيهة جعلت تمسح دموعها خلالها بثوبها، ثم تركته وانصرفت.

ذات ليلة:

اطمأن كل منهما لصاحبه حتى زال أثر الغيمة التي

سببها ما ذكرته (سبيكة الذهب) لعمار عن أصلها، أو ظنا أنه كذلك، ولم تكن علاقتهما قد تعدت في وقت من الأوقات ما ذكرناه، فلم يقترب أحدهما من الآخر، ولم يقبله، فضلاً عن أن يحتضنه كما يفعل المحبون مع أنهما كانا يودان ذلك، ولكن تربيتهما الدينية قد منعتهما منه.

غير أن الصبر له حدود، والمرأة دائماً هي الأضعف من النواحي العاطفية، فهكذا جعلتها العناية الإلهية من أجل أن تعينها وفرة العاطفة على تربية أطفالها، وتحمل ما يشق على الرجل أن يتحمله من ذلك.

وذات ليلة كان عمار مضطجعاً في غرفته، مستعداً للنوم، وقد أطفأ النور فيها، وبقى نور من مصباح ضئيل بعيد، وإذا به يحس وهو بين النائم واليقظان برائحة عطر تداعب أنفه، ثم بنسيم دافئ يقترب من وجهه، ولم يدر ذلك وهو في تلك الحالة بين النوم واليقظة حتى نظر بملء عينيه فرأى خيال حبيبته، وعرف أن ذلك النسيم الدافئ هو أنفاسها تقترب من وجهه، فأسرع يبتعد عنه، ويقول لها بلطف:

يا حبيبتي، إن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وأنا أحبك وأحب والله أن أدني وجهي من أنفاسك، بل أن ألثم شفتيك، ولكنني أخاف الله من أن يعاقبني ويعاقبك على

حرماننا من السعادة التي ننتظرها عندما نصبح زوجين على سنة الله ورسوله.

وما أن سمعت كلامه حتى ثابت إلى رشدها، وابتعدت عنه قائلة: صدقت يا عمار، والله لا تخفى عليه خافية، ثم انطلقت خارجة من الغرفة.

الاتفاق:

سارت الأيام على نمط واحد من السعادة بين القلبين الحبيبين حيث اتفقا على الزواج والذهاب معاً إلى بلدة (عمار) (الوسيعة).

وكان عمار قد بحث هذا الأمر في نفسه قبل ذلك، وقرر بعد تردد أن يعود إلى بلدته، وأن يرضى بممارسة (النجارة) صنعته وصنعة والده وجده، وألا يتطلع إلى ما كان يتطلع إليه من قبل بأن يسعى إلى أن يحصل على مال يستغله في التجارة أو الفلاحة المريحة، ويهجر مهنة النجارة الرتيبة التي لم تغن والده، وإن كانت سدت حاجته من عوز.

وقال في نفسه: إن تركي خيراً مضموناً يتمثل في الزواج من هذه الفتاة التي أحبها والعيش عيشة الكفاف نجاراً في بلدي أولى وأفضل من البحث عن خير مظنون لا يوثق بحصوله،

وربما حصل العكس منه، كما حصل عليَّ عندما اتهمت بالسرقة وعذبت وزج بي في السجن لمدة لا أعلم مقدارها.

الزواج:

وهكذا كان، فقد تقدم إلى صاحب المنجرة (مطروح) طالباً منه يد ابنته (سبيكة الذهب)، ولم يخبره أنه قد عرف بأنه والدها بالتبني، ولكنه هو الذي يمكن أن يخطبها منه لأنه لا والد لها، بل ليس لها وليٌ غيره، إلا القاضي الذي هو ولي من لا ولي له.

وكان مطروح قد عرف (عماراً) على حقيقته، فرأى فيه الصدق في القول والإخلاص في العمل والاستقامة والخلق الرفيع، ورأى أنه لا يمكن أن يحصل على رجل آخر أفضل منه لهذه البنت التي تبناها، ورباها مع زوجته، فأجاب (عماراً) بما طيب خاطره، وقال له: إنني موافق على ذلك، لكنني سوف أشاور القاضي، فهو رجل عالم وصديق لي، ولا أحب أن أقطع في أمر مهم مثل هذا دون مشورته.

كان (مطروح) يظن أن عماراً لم يعرف بقصة (سبيكة الذهب) ولذلك قال ما قال، والحقيقة أنه لابد من أن يخبر القاضي ويأخذ موافقته، لأن القاضي هو ولي (سبيكة الذهب)

الذي لا يستطيع تزويجها إلّا هو لأن (مطروحاً) والدها بالتبني، وذلك لا يعطيه ولاية تزويجها.

وقد ذهب إلى القاضي بالفعل، وأخبره بأن (عماراً) كفء كريم لسبيكة الذهب، وأنه لا يظن أنها سوف يحصل لها زوج مثله، وقد سأل عنه القاضي بعد ذلك فتحقق من صحة ما ذكره مطروح له، كما أرسل بنسوة ثقات إلى (سبيكة الذهب) يسألنها عن رأيها في هذا الزواج فأخبرتهن بموافقتها، وبأنها عرفت من أخلاق عمار ما حملها على قبول الزواج منه.

كانت المشكلة الكبيرة التي واجهت عماراً أن المال الذي استحقه أجراً على عمله عند (مطروح) لم يكن كافياً لما يتطلبه الزواج من حفلات وولائم، لأنه لم يقم عنده إلا ثمانية أشهر، ولما أبدى ذلك لسبيكة الذهب سارعت تقول له: إن لي مالاً عند القاضي نأخذ منه ما نريد، فأبى ذلك بشمم وأنفة، وقال: كيف يجوز لي أن آخذ من مالك لأنفقه فيما يجب عليَّ دونك؟

ثم اتفقا على أن تكون مراسم الزواج مختصرة خفيفة تقتصر على الأهل والأقارب الأقربين لسبيكة الذهب، والمراد بذلك أقارب أهلها بالتبني، لأنها مثل (عمار) ليس لها في هذه المدينة قريب قرابة نسب.

وشيء آخر صمم عليه عمار ووافقت زوجته، وهو أن يرحل عائداً إلى بلدته (الوسيعة)، ومعه زوجته بعد يومين فقط من الزواج لئلا يحتاج إلى نفقات كثيرة.

بعد أن أتم القاضي عقد الزواج بينهما قال لسبيكة الذهب: إنني أرى - يا ابنتي - أن أجعل مالك الذي عندي قسمين: قسم اشتري به لك جوهرة ثمينة، وقسم أجعله من الذهب الخالص، حتى يمكنك أن تخفي ذلك داخل ملابسك، وتنتفعي به إذا شئت في المستقبل.

السفر:

وهكذا سافر عمار معه زوجته على بعير واحد، ولم يكن معهما من رفيق في السفر إلا رجل معه زوجته أيضاً على بعير واحد، وإن كان قد تزوج زوجته منذ سنوات، وليس كعمار الذي تزوجها قبل يومين.

كانا قد حددا موعد السفر في يوم الخميس، وهو يوم كانوا يعتقدون أنه يوم مناسب للسفر، ولكنهم لم يجدوا في ذلك اليوم قافلة مسافرة يسيرون معها، فقرروا أن يسافروا وحدهم فمدينة (الوسيعة) التي يقصدونها غير بعيدة، والطرق آمنة، ورفيق عمار رجل مجرب شجاع.

وهكذا كان.

غادروا بلدة الخرارة في صباح باكر، ولم تكن لهم خبرة بأمور السفر، ولذلك عندما قطعوا نصف يوم من السير مبتعدين عنها لحق بهم رجال الأمير، وأوقفوهم قائلين لهم: إنكم خالفتم أمر الأمير الذي كان أصدره إلى عموم القوافل والمسافرين، ويقضي بأن يدفع كل من غادر المدينة خمسة دراهم على البعير الذي يمتطيه أو يحمل عليه متاعه، وأن يفتش رجال الأمير أمتعته ورحاله.

فاعتذر عمار ورفيقه واسمه (طرَّاد) لرجال الأمير وقالا: نحن لم نكن نعلم بهذا، وإلا لما خالفنا أمر الأمير - وكانا صادقين - فيمكننا الآن أن ندفع ما أردتم، وأن تتركونا نواصل سفرنا.

فأبى رجال الأمير عليهم ذلك، وقالوا: أنتم خالفتم أمر الأمير، ولا بد من مواجهته، فإن أذن لكم وصفح عنكم، وإلا عاقبكم بما يراه وترككم في النهاية تذهبون.

المواجهة والمفاجأة:

كان (عمار) أشد الرجلين بل والمرأتين كرهاً لمقابلة الأمير، فلم يكن قد علم بأن الأمير قبض على اللص الذي سرق

المال الذي اتهم بسرقته، ولا بأن الأمير عرف أنه - أي عماراً- بريء، وقال له هاجسه: إنه ربما لم يعلم أنه سمح لي بالخروج من السجن؛ لأن خروجي كان بالعدد مع غيري، وربما يبدو له أن يسجنني ثانية، وقال في ذهنه: وهذا أمر مفزع ولكن الأمر الأكثر خطورة منه أنني الآن لست وحدي، فمعي زوجتي ماذا أفعل بها؟

وإذا سجنني الأمير كيف أعلم ما يحصل لها من بعدي ثم الشماتة التي تلحق بها إذا عرف الناس أنها رجعت من السفر لأن زوجها سجنه الأمير.

أما صاحبه (طرَّاد) فإنه لم يبال كثيراً بالأمر، وقال لعمار يهون الأمر عليه: أقصى ما يفعله الأمير أن يأخذ منا زيادة مال، وهذا ليس مهماً لأنه لن يثنينا عن مواصلة سفرنا، ولما رأى جزع عمار ظن أنه بسبب المال، فقال له: يا رفيقي إذا لم يكن لديك المال الذي قد يطلبه الأمير، فإنني مستعد أن أقرضك إياه على أن ترده إليّ بعد أن نصل إلى بلدتك (الوسيعة) ظن أنه قد غادرها منذ وقت قريب، وأن له فيها مالاً.

أدخلهم أعوان الأمير عليه في مجلسه الرهيب كما عرفه (عمار)، فكان أن رأى عماراً أول الأمر، ولم يعرفه حق المعرفة، فسأله عن اسمه، فقال: (عمار). قال ذلك بعد تردد

لأنه خاف أن يعرفه الأمير فيعذبه، فأراد أن يذكر غير ذلك الاسم غير أنه لم يقل شيئاً غير صحيح في الماضي إلا معاريض من معاريض الكلام.

فكرر الأمير عليه ذلك: أأنت عمار؟ ولم يكن الأمير يعرف غير اسمه، فلم يكن يعرف اسم أبيه ولا اسم أسرته، لأن ذلك ليس مهماً له.

فقال الأمير: عمار، الذي اتهمناه بالسرقة وعذبناه وسجناه مدة طويلة ؟

كل ذلك لم يطمئن عماراً إلا أن سحنة الأمير ولهجته بالكلام كانت تختلف عما كان عهدها عليه قبل ذلك..

وكان عمار يقول: نعم، مع خوفه وجزعه مما قد يترتب على ذلك من ضرر، إلى أن قال الأمير: أنت عمار الذي ظلمناه واتهمناه بأنه سارق، وهو بريء نقي، ولكننا لم نعرف ذلك إلا بعد فوات الأوان، حينما عرفنا سارق المال الحقيقي، وعرفنا أننا ظلمناك وعذبناك بغير وجه حق !.

هنا تغير الأمر أمام عمار، وقال: أيها الأمير، الحمد لله على بيان الحق، إلا أنكم وأراد أن يذكر ما لقيه من ظلم وعذاب في السجن وقبله، ولكن الكلمات وقفت في حلقه

وخاف أن يغلبه البكاء فسكت، فقال الأمير: الواقع - يا عمار- أنني منذ أن عرفت السارق الحقيقي، وعرفت أنني ظلمتك باتهامك بالسرقة وأنت بريء، ثم العذاب الأليم الذي أوصيت بأن يصب عليك، ثم بالسجن الطويل الذي عانيته، وأنا لا أنام الليل إذا ذكرتك وقلما تغيب عن ذهني في ليل أو نهار، وقد سعيت بكل ما لدي من إمكانات في التفتيش عنك في المدينة وفيما حولها عسى أن أعثر عليك فأطلب منك أن تسامحني عما بدر مني تجاهك، وأن تغفر لي ما ارتكبته بحقك، ولكنني لم استطع، وقد آيسني أحد رجال السجان من أن أجدك لأنه قال: إنك عندما كنت في السجن كنت كومة من العظام، ولذلك لن يعرفك من رآك، لأن خارج السجن يكون مرآك غير مرآك فيه.

يا عمار، إنني رجل لا أطيق الظلم، بل أنفر من أن يظلم غيري غيره، فلا استريح حتى آخذ للمظلوم من الظالم، وفي حالتي أنا الظالم وأنت المظلوم، فقد نهاني القاضي عن تعذيبك وقال لي: (الحدود تدفع بالشبهات) كما في الحديث الصحيح: (ادرؤوا الحدود بالشبهات)، فكيف تجلده وتعذبه وتسجنه وأنت لم يثبت عليه عندك حد؟

وإنني يا عمار نادم على كل ما صدر مني إليك، وليس

ذلك فحسب، وإنما مستعد أن أقدم إليك كل ما تطلبه مني إذا سامحتني من كل قلبك عما صدر مني نحوك.

كان الأمير يتكلم وذهن عمار يستعرض ما لاقاه من شقاء وعذاب على يد هذا الأمير، ثم ذلك العذاب المقيم في السجن الرهيب الذي ليس له باب، ولا يرى من يكون فيه شمساً في النهار ولا قمراً في الليل، بل وليس عليه من اللباس إلا ثوباً خلقاً منتناً لا يغسل ولا يغير في الشتاء ولا في الصيف، ثم الشيء الفظيع، وهو اتهامه بالسرقة مع أنه لم يسرق شيئاً حتى عندما كان صبياً مع الصبيان، لذلك تساوى عنده في تلك اللحظة كل شيء فيه، ولم يبق أمامه فرصة للانتقام من الأمير، وقد رأى حرصه على أن يسامحه، إلا أن قال: أيها الأمير، اعلم أن الدنيا فانية، والآخرة باقية، ويوم القيامة ستقف أمام رب العباد وحيداً ليس لك أعوان ولا أقارب ولا حتى أصدقاء، وليست لك أموال، ولا حول ولا قوة، فيسألك الله سبحانه وتعالى عما فعلته بي فلا تجد لك حجة، فيقتض منك قصاصاً لا تستطيع منه إفلاتاً ولا في الموت، لأن الآخرة ليس فيها موت.

كما أن ظلم العباد يعجل الله عقوبته في الدنيا آفة في الملك، أو مرضاً في بدن الملك أو أهله، أو ولده أو أحبابه، وإنني

عشت على ذلك، عليه أنام وأصحو انتظر ما يفعل الله بك وأنا على يقين منه، لأن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، ولذلك لن أتنازل عن هذا العزاء العظيم، وهو أن يعاقبك الله تعالى عقاباً لا أستطيعه أنا وأمثالي.

لقد كاد الأمير يتمزق من عواطف غريبة لم يعهد لها مثيلاً من قبل، فهو يريد أن ينتقم من هذا الذي أراد أن ينتقم منه لمجرد أنه عرف أن ظلمه إياه قد أقض مضجعه، ولكن ماذا تكون النتيجة إذا فعل ذلك؟

إنها ستكون إضافة ظلم إلى ظلم، ومن ثمّ معاناة عذاب الضمير من ذلك، ثم إنه إن تركه يذهب ضيّع هذه الفرصة الثمينة لمعرفة مكانه، بل للقاء به، لذلك سكت على مضض، وأمر أن يجعل عمار ومرافقوه في دار الضيافة، وأن يحتفى بهم الحفاوة الفائقة.

ثم إن الأمير شاور زوجته، وهي امرأة عاقلة، وقاضي البلدة الذي كان عرف عماراً، ولكنه لم يعرف أنه الذي وقع عليه ذلك الظلم؛ لأنه كان عندما أتوا به إليه بعد تعذيبه وسجنه على هيئة لا يمكن أن يعرفه بها أقرب المقربين إليه الذي كانوا يعرفونه عندما كان في وضع معتاد.

كما شاور الأمير جماعة من خلصائه ومستشاريه فقر رأيه على شيء نفذه.

عقد مجلساً واسعاً في اليوم التالي في مقر حكمه حضره القاضي والأعيان وكبار الموظفين والكاتب العدل، وحتى زوجته وبعض قريباته جلسن في ركن خاص بهن، وأمر بأن يحضر عمار مكرماً معززاً وقال له أمام الجميع: الحقيقة يا عمار أنني أردت أن أعلن أمام هؤلاء القوم الذين هم خلاصة أهل البلد، وأهل الحل والعقد فيها أنك رجل بريء، وأنك بعيد عن السرقة، وأنني قد ظلمتك عندما اتهمتك بأنك سارق، وإنني جاوزت الحد الشرعي الذي يرضي الله ورسوله حينما عاقبتك بدون دليل، وإنني مستعد الآن لأن أمكنك من نفسي تضربني بقدر الضربات التي ضربتك، وعلى مثل هيئتها إن كنت تعرف قدرها، فإن لم تعرف وزدت على ذلك فإنني أستحق تلك الزيادة في العقاب، وأما السجن فإنه ليس بيدي أن استرجع ما حصل عليك فيه، ولكنني مستعد الآن وعلى رؤوس الأشهاد من علية القوم وصفوتهم أن أبذل لك من المال بمثابة التعويض عنه ما تريده مما أستطيع بذله.

موقف إنساني نادر:

أجهش الأمير بالبكاء وهو يتوسل بلسانه وعينيه؛ بل وكل كيانه إلى عمار أن يسامحه ويغفر له ما بدر من ظلم له، وما وقع عليه من عذاب، وعندئذ شهد الحاضرون موقفاً إنسانياً نادراً حينما تيقن عمار من أن الأمير صادق في ندامته على ما فعله به، وأنه يطلب الصفح منه خوفاً من عقاب الله، وأنه مستعد ليعمل لعمار أي شيء يريده لكي يعفو عنه، فنسي (عمار) كل أنواع الإساءة والظلم الذي لقيه من الأمير، وقال وهو يجهش بالبكاء أيضاً: أيها الأمير الجليل، لقد عرفت صدق قولك وخالص نيتك في طلب العفو مني، وإنني أعلن أمام الجميع من هؤلاء القوم ومن يكون وراءهم ممن يبلغهم قولي أنني سامحتك لوجه الله من دون أن أطلب منك أي شيء من التعويض بالمال أو غيره، وإنني مقدر لك إخلاصك وفرارك من الظلم.

ثم قام كل واحد منهما إلى الآخر يقبل رأسه، وهنا أجهش بعض الحاضرين بالبكاء، فقد رأى الجميع هذا المشهد النادر من أمير قوي حازم، ولكنه أمام خوفه من عاقبة الظلم وخشيته من الله، يتذلل لصعلوك في نظرهم، ليس بذي بال عندهم، وهذا الصعلوك الفقير المحتاج يتنازل عن كل ما

عرضه عليه الأمير من تعويض مالي، لقاء ذلك الموقف النبيل من الأمير !!!.

لقد ساد القاعة الكبيرة التي كان يجلس فيها القوم صمت ممزوج بالوجوم والتأثر قامت على إثره امرأة الأمير إلى زوجها فأسرت في أذنه بكلمات قال إثرها لعمار: يا عمار، أشكرك على ما ذكرت، ولكن لا بد لي من دفع التعويض المالي الذي يناسبك، فأخبرني بطلبك، فأبى عمار ذلك، وقال: هو ما ذكرت لك أيها الأمير، لقد سامحتك لقاء صدقك في طلب العفو مني.

وكانت امرأة الأمير قد قالت له: إنه قد سامحك الآن ولكن ربما لا يذهب ما في نفسه عليك في المستقبل، فعليك أن تدفع له تعويضاً مالياً يستمر أثره حتى يسامحك من كل قلبه، ولا يحد في نفسه شيئاً عليك حتى يموت.

لذلك قال الأمير أمام الجميع: إن عماراً لم يطلب شيئاً معيناً من مال أو غيره، وإنني شاكره على ذلك؛ غير أنني أرى أن التعويض من حقه ولا يسقطه عني كونه لم يطالب به، لذا رأيت أن تؤلف لجنة من القاضي نيابة عن عمار، وكلنا يثق بحكمته وعقله، ومن زوجتي ممثلة لي ليتداولا في نوع التعويض المالي المطلوب ومقداره، ونمهلهما نصف ساعة، ثم يعلنان

أمامكم أيها الناس جميعاً ما يصلان إليه من قرار.

وهنا خرجا من المكان يتبعهما كاتب القاضي إلى غرفة مجاورة عادا بعدها إلى المجلس العام، ولم يخبر القاضي ولا زوجة الأمير بما قرراه، وإنما أعلن قرارهما كاتب القاضي على الجميع:

أولاً: يدفع الأمير لعمار ثلاثاً من الخيل الأصائل، وخمساً من النوق النجائب.

ثانياً: يشتري له الأمير في بلدته مسكناً لائقاً يسكنه وأسرته.

ثالثاً: يشتري الأمير له مزرعة في بلده ذات عائد مالي لتدر له ما يكفيه وأسرته من نفقة.

رابعاً: يعطيه الأمير مبلغاً مناسباً من المال نقداً يستعين به على ما يلزمه من نفقة قبل أن تبدأ المزرعة بالإنتاج.

وهنا سارع الأمير بأن قال: لقد قبلت.

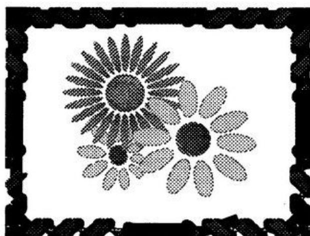
فسأل القاضي عماراً قائلاً: وماذا تقول يا عمار؟ فأجاب: لقد قبلت.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، وإنما قال الأمير: وأزيد

شيئاً من عندي، وهو أن أمير بلدة (الوسيعة) التي سيذهب إليها عمار هو صديقي، وسوف أرسل وفداً من رجالي قبل أن يقدم عمار ليشاوروه في أمر المسكن والمزرعة، وليطلبوا منه أن يستقبل عماراً ومن معه استقبالاً رسمياً كما يستقبل كبار الشخصيات في بلده.

وهكذا كان.

فقد هجر عمار مهنة النجارة؛ بل إنه باع واشترى بما معه من المال، فربحت تجارته حتى صار يعرف بعمار تاجر التجار!!!



التي ملَّت النعيم

التي ملّت النعيم

كان السلطان (قرمان بن البيلسان) سلطاناً على بلاد واسعة، ذات نواح شاسعة، وكان عادلاً محبوباً من رعيته، وقد توطد له الحكم منذ فترة طويلة، لذلك لم تكن في بلاده حروب ولا كروب؛ بل عاش الناس في رخاء وصفاء.

وكان السلطان (قرمان) يملك كل ما يريده السلاطين أمثاله إلا شيئاً واحداً هو أن يكون له ابن يرث الملك عنه، ويحكم البلاد من بعده إذْ لم يعش له من الولد إلا ابنة وحيدة، لذلك اعتنى بها، وأحضر لها المؤدبين والعلماء الذين علموها وثقفوها، حتى اكتملت لديها المعرفة بالعلوم المطلوبة لأمثالها في زمانها، ولم تكن أنظمة بلاده ولا أعرافها تسمح بأن تتولى البنت السلطة بعد أبيها، فكان هاجسه الذي لا يريد أن يستقر في ذهنه أن يتولى الملك بعده ابن لأخيه كان أحق بذلك قانوناً وعرفاً من غيره، غير أن السلطان لا يحبه، لأنه بلغه أنه كان يتمنى موته حتى يستولي على الملك بعده، ولم يكن مطمئناً إلى حسن رعايته للملك والعمل على استمرار حكم أسرته، بل إن السلطان (قرمان) كان يخشى أن تكون نهاية حكم أسرته

على يد ابن أخيه هذا.

أما ابنته واسمها (نجمة الزمان)، فإنها لم تكن أسعد حالاً من أبيها السلطان؛ لأنها تعرف أن نهاية حياتها هي أن تكون زوجة لملك أو أمير، يغلق عليها الأبواب، ويكثر دونها من الحجاب، فلا تعود ترى إلا هؤلاء الخادمات المنافقات ولا تعود تعرف إلا ما كانت عرفته من قبل في عالم محدود المساحة، ضيق المعرفة، وهذا ما لا تحفل به، بل إنها تضيق به حتى إنها كانت تغبط في نفسها نساء أهل البادية والفلاحين مع ما هن عليه من التعب والشقاء لكونهن يملكن الحرية في السفر والترحال، أو يكثرن من التنقل بلا حدود أو قيود.

ولم تكن أخبرت أباها بهذا الذي ظل يضايقها ولا يفارقها، لأنها تحبه ولا تريده أن يتكدر صفوه من أجلها.

ولشيء آخر وهو أنها تحب أمها، وتعرف أن والدها لو فقدها وهي ابنته الوحيدة، فإنه سيجد في ذلك عذراً في أن يتزوج زوجة أخرى غير أمها، لئلا تنقطع ذريته، وهذا ما لا تريده لأمها.

أمر قضي بليل:

لذلك أزمعت على خطة ما لبثت أن نفذتها، وهي أن

تتنكر في ثياب شاب على هيئة التجار، وألا تخبر أحداً بذلك إلا وصيفة لها تثق بحبها إياها وبإخلاصها لها، وبشيء أهم من ذلك وهو سعة حيلتها، وقدرتها على التخلص من المآزق التي قد تصادفها، أما فيما يتعلق بوالدها فإنها قد أزمعت على أن ترسل له رسالة من جهة بعيدة تصل إليها وترحل منها قبل وصول رسالتها إليه، تخبره أنها بخير وأنها عائدة متى ما قدر لها أن تعود.

كانت (نجمة الزمان) قد حددت لخروجها متنكرة من القصر مع وصيفتها (نور الشمعدان) قبيل منتصف ليلة ليس فيها قمر يضيء، وأن تسلكا طريقاً ليس فيه من يذهب أو يجيء، وهدفها أن تسيح متنكرة في بلاد بعيدة خارجة عن سلطان والدها كما يفعل التجار فترى بعض الأمصار، وتتعرف على ديار من الديار، ثم تعود إلى بلادها بعد زمن لم تقدر مدته، ولم تتخيل حتى كيف تكون نهايته، وإنما هدفها أن تمضي فيما فكرت فيه.

كانت وصيفتها (نور الشمعدان) مثلها في السن أو تزيد سنتين أو ثلاثاً، فهي في الخامسة والعشرين ولكن الذي يراها يظنها في الثلاثين، ولذلك عملت لها شارباً ولحية مصطنعين لأن مظهرها ليس مظهر الشاب الذي لم يظهر في وجهه شعر بعد،

بخلاف الأميرة (نجمة الزمان)، فإن مظهرها مظهر الشاب الجميل ذي الطرف الكحيل والخد الأسيل، ولكنها إلى ذلك ذات مظهر وقور، وطبع رزين، وتصرف لا يقل عن تصرف المسنين المجربين.

كان أكثر ما يلزم لمثل هذه المغامرة أن تكون مع من يقوم بها مقادير من النقود وقد أخذتا للأمر أهميته بأن تحزمت كل واحدة منهما بحزام لطيف لا يكاد يرى بداخله مبالغ من الذهب وجوهرتان نفيستان، وأن تعدا فرسين من أفراس القصر من غير الجياد حتى لا تثيرا الانتباه إذا ركبتا فرسين من الأفراس الأصيلة.

خرجتا من باب القصر في الموعد المرسوم، وسارتا في جنح الظلام يركضان فرسيهما ركضاً حتى وصلتا مع طلوع الفجر إلى منزل هو مكان للاستراحة خالٍ من الناس كان السلطان يذهب إليه في وقت مضى من الأيام، وكانتا قد حصلتا على مفتاحه خفية.

وقد اختارت الأميرة لخروجها يوماً لا يراها أبوها فيه في العادة، لأنه يوم السبت الذي يعقب يوم العطلة يوم الجمعة، وكانت ذكرت لأبيها أنها تحب أن تتفرغ في يوم من الأسبوع لمطالعة الكتب المفيدة، وأن تخلو لنفسها فيه لبعض الوقت،

ولذلك كان عدم وجودها في ذلك اليوم وهو يوم السبت الذي خرجت قبل طلوع فجره إلى القصر المختار خارج المدينة أمراً غير لافت لنظر أحد.

فبقيت مع وصيفتها في ذلك القصر الذي فيه ما يحتاجان إليه، فأكلا وشربا وناما في النهار استعداداً لسرى الليل.

مفارقة السلطنة:

عندما جن الليل خرجتا من المبنى المهجور، واستأنفتا السير فوصلتا في آخر الليل إلى حدود السلطنة التي يحكمها السلطان (قرمان) ودخلتا حدود بلاد أخرى تحت نفوذ حاكم آخر، وهو حاكم عادل أيضاً محب للتجارة ولعمارة البلاد، فقصدتا خاناً للمسافرين، ودخلتا وهما متنكرتان ومن ذلك الخان حصلتا طعاماً لهما وعلفاً للدابتين، واستراحتا فيه.

ثم السفر مع القافلة:

ذهبتا بعد ذلك إلى مركز السفر في المدينة واسمها، (راحة البلاد) فاتفقتا على السفر مع قافلة كانت تتهيأ غداً للسفر إلى بلاد بعيدة للتجارة، ودفعتا الأجرة مع الطعام لهما، أما الفرسان فقد باعتاهما لأحد الأغراب الذي ذكر أنه

سيسافر بهما إلى بلاد ثانية.

سارت القافلة في موعدها المقرر في صباح مبكر من أيام الربيع بعد أن كانت قد أتمت كل ما يلزم للسفر في اليوم السابق.

وقد استأجرتا محملين متعادلين على جمل قوي، ومعه أيضاً بغلة يركبانها عندما يملان الجلوس في المحمل.

أما الطعام فإنه معدٌّ وجاهز من قبل المشرفين على القافلة، وليس ذلك فحسب، وإنما كان يرافق القافلة حرس قوي من جنود مدربين.

كان السفر في القافلة بالنسبة إليهما بمثابة النزهة من النزه، ولم يكدره إلا إصرار امرأتين فيهما كانتا تقتربان منهما دائماً وتحاولان التقرب إليهما، أما صغراهما فإنها كانت فتاة في العشرين رأت الأميرة على هيئة شاب وسيم، وأما الأخرى فإنها أكبر منها، وقد قنعت أن تتعرض للوصيفة تظنها رجلاً في الثلاثين.

كان هذا الأمر مما ضايق الأميرة ووصيفتها ليس لكونه أمراً يضايق في حد ذاته فحسب، وإنما لكونه أيضاً قد يلفت الأنظار إليهما فينكشف أمرهما، ويفتضح سرهما.

وماذا عن السلطان قرمان؟

كان قد شغل السلطان قرمان شاغل عن استدعاء ابنته حتى في اليوم الذي اعتاد على رؤيتها فيه بعد يوم خلوتها ولم يسأل عنها إلا بعد مضي ثلاثة أيام من مغادرتها القصر، فاضطرب لهذا الأمر، بل فزع أشد الفزع تخيلاً أن أحد أعدائه الكثر، ومنهم ابن أخيه قد احتال على ابنته فاختطفها، فأرسل وسأل الناس من موظفين وأمراء وحكام، في بلاده عن فتاتين في سن متقاربة فقدا من قصر السلطان ولكن دون جدوى فلم يكن لسعيه ذلك أدنى صدى.

وأما الفتاتان أو على ما يظهر للناس من أمرهما فإنهما الرجل والشاب، فقد نعما بالسفر والارتحال ورؤية ما لم يرياه من قبل حتى من الوديان والجبال، فضلاً عن سماع قصص من المرافقين في السفر، وأحاديث من أحاديث السمر، فيها ما هو حقيقي وما هو خيالي، وقد أعجبهما الخيالي أكثر مما أعجبهما الحقيقي، وبخاصة عن تلك المدينة البعيدة التي تتجه إليها القافلة (منية السفّار).

هذا وقد أمضت القافلة أسبوعين كاملين من السير كانا بالنسبة إليهما تعادلان يومين رغم مشقة النزول والترحال، والسُّرَى في الليالي الطوال.

اليوم المنشود:

في صباح اليوم الخامس عشر، نادى المنادي في القافلة قائلاً: يا أيها الرفقاء في السفر، إننا سوف ندخل مدينة (منية السفار) في صباح غد الباكر، فمن كانت له حاجة إلى رفيقه، أو حتى كانت له علاقة بأحد من أهل القافلة فليحصل عليها قبل الوصول حيث سيفترق الرفاق فراقاً لا يرجى معه تلاق.

فأخذ كل رفيق يودع رفيقه، أو من كان يتبادل معه الحديث، أو كانا يأكلان معاً الطعام.

وقد سارعت بعض النسوة اللاتي كن في القافلة يعرضن على الأميرة ووصيفتها النزول في بيوتهن بدلاً من خان المسافرين سواء من باب الضيافة أو بأجرة معتدلة.

ولم تتخلصا من ذلك إلا بجهد.

مدينة منية السفار:

(منية السفار) مدينة كبيرة في عرف أهل الأزمان القديمة، يناهز عدد سكانها سبعين ألفاً، وتقع على نهر جار اسمه (نهر الربيع) لأن مياهه تبدأ بالزيادة في فصل الربيع.

وهي مدينة تجارية مشهورة يقصدها أهل النواحي البعيدة للتبادل التجاري، وتجلب إليها البضائع التي لا توجد مجتمعة في البلدان الأخرى.

ولذلك توجد فيها عدة (خانات)، وهي الفنادق المعدة لنزول المسافرين وإقامتهم تكون فيها غرف للسكن ومطابخ ومطاعم وأماكن للدواب وعلفها.

نزلت الأميرة ووصيفتها في (خان) كبير قريب من نقطة انطلاق القوافل يكاد يعرفه الجميع، واستأجرت لها غرفة ولوصيفتها غرفة أخرى مجاورة حتى تظهرا بمظهر الرجل الذي قد تزوره من تزوره، وهي لا تريد بذلك إلا التعمية.

كان ذلك في الصباح، ولم يكن لهما من همّ في ذلك اليوم إلا أن تجدا (خاناً) آخر تنزلان فيه، لا يعرف أحد ممن كانوا في القافلة عن نزولهما فيه شيئاً.

وفي الليل كانت الأميرة تنتقل إليه.

وسوف نتحدث بعد ذلك عن الأميرة وحدها، لأنها بطلة قصتنا، إلا إذا احتاج الأمر إلى ذكر وصيفتها لشيء يستحق الذكر في القصة.

غيرت الأميرة لباسها وسارت مع وصيفتها التي غيرت

ملابسها أيضاً، بل وغيرت لحيتها بلحية أخرى مستعارة، وسارت الأميرة وسط هذه المدينة التي لا يعرفها فيها أحد، ولا تجد من ينصحها بعدم السير أو الخروج عن أماكن معينة، ووجدت في ذلك متعة عظيمة لم تعرفها من قبل.

ولم يكن يكدر متعتها إلا نظرات ذوي الفضول، وخاصة من النساء إليها، فكن يتابعنها بنظرات الإعجاب مما جعلها تشعر بالحرج من ذلك، والخوف من أن يحصل ما يكشف أمرها أمام الرجال، فإن عدد الذين يتابعونها بنظراتهم قليل.

وكانت لبست ملابس التجار الغرباء، حتى إن بعضها ليس نقياً من الوسخ، وحتى إنها لبست خفين ثقيلين إمعاناً في التنكر.

الزوجان المتخاصمان:

كانت الأميرة قد أخذت بهذه الحرية، وبالمناظر الغريبة عنها، لذلك كانت تصغي إلى كل ما تسمعه، فمرت مع أحد الشوارع ببيت فيه زوجان يتخاصمان، ويكادان يتلاطمان وسمعت الزوجة تقول لزوجها: ألا تستحي من نفسك فلا تحضر لي ثوباً جديداً، وثوبي الذي عليَّ قد مضى عليه شهر ولم يبق

على أن يخلقً إلا شهر واحد ، ولا تستحي من نفسك وأنت تعرف أن السمن والعسل لم يبق منه في بيتنا إلا ما يكفي لشهر فقط، ومع ذلك لم تحضر لي ثوباً جديداً ، ولم تحضر للبيت سمناً وعسلاً ، بدلاً من ذلك الذي قارب نفاده؟

ولما اشتد بينهما الخصام خرجت الزوجة من باب الدار وقالت: يا مسلمون، احكموا بيني وبين هذا الرجل البخيل، ولم يكن في الشارع غير الأميرة ووصيفتها ، فوجهت كلامها إليهما.

أما الزوج فإنه قال: أيها المسلمون، إنني لم أمتنع عن تلبية ما تطلبه مني، ولكن قد بقيت مدة كافية على ذلك، إنها شهر، وإنني مستعد لإحضار ما تطلبه قبل هذه المدة.

كانت الأميرة (نجمة الزمان) تبغض أكثر ما تبغض هذا النوع من النساء اللاتي يؤذين أزواجهن وأهلهن بطلبات لا داعي لها ، لذلك أسرعت متهكمة بالمرأة تقول لزوجها: لا ، هذا ما هو حق منك، بل يجب أن تلبي طلباتها.

فأسرعت الزوجة تقول لزوجها: هذا تاجر من أسخف التجار وأبخلهم، حتى إنه بخل على نفسه بحذاء جديد خفيف، ومع ذلك عرف خطأك فكيف بالآخرين؟

وهنا وجهت الأميرة كلامها للزوجة قائلة: إنني أقول هذا مازحة، ولا فإنك لا تستحقين هذا الزوج الطيب الذي قبل أن يحضر ما تريدينه منه في وقته، ألا تخافين الله، يا امرأة في زوجك فتضعين على عاتقه هماً لم يحن وقته؟ ولماذا يكدس عندك ما لا تحتاجينه!.

ثم أسرعت تتبعها وصيفتها بالابتعاد عن المنزل الذي كانت الزوجة قد دخلت إليه مسرعة، وإذا بها تخرج ومعها عصا غليظة تبين أنها كانت تريد أن تضرب بها الأميرة، ولكنها وجدتها بعيدة، ومنعها زوجها من اللحاق بها.

والزوجان المتراحمان:

أبعدت الأميرة عن ذلك الشارع سالكة شارعاً آخر، وإذا بحمال يحمل على جمله حطباً وهو يصيح بالناس: ابعدوا عن الحطب، خذوا حذركم لئلا يؤذيكم، فلصقت بباب من الأبواب بالشارع، وإذا بها تسمع مناجاة هادئة دافئة بين شخصين يبدوان كالمحبين الوالهين، حتى إن كلامهما وموضوعه ليس موضوع الغزل يبدو كأنه الغزل، فطاب لها أن تقف وتنصت له، فسمعت الزوج يقول لزوجته: يا أم فلان، أنا في غاية الضيق لأنه لم يبق في بيتنا من الطعام إلا ما يكفي

ليوم أو يومين، وليس لدي من المال أي شيء أشتري به طعاماً إذا نفد، فتقول زوجته له: يا فلان، هوِّن عليك، ولا ينبغي أن تغتم لهذا الأمر، فيوم أو يومان كافيان لأن ينفرج فيهما الهم، ويذهب الغم، وقد يفتح عليك فيهما ما يسد حاجتك، ويكفي مؤونة بيتك.

فقال الزوج، يا أم فلان، لو كان ما في البيت إلا أنا وأنت لهان علي الأمر حتى لو مسنا الجوع وصبرنا عليه، ولكن ماذا نفعل بولدينا: جوهر وياسمين، وهما طفلان غريران هل نطعمهما كلاماً؟

ثم إن المشكل عندي أن (يوم الزينة) الذي تحتفل فيه مدينتنا كل عام، وتلزم كل سكانها وخاصة من الأطفال أن يلبسوا ألبسة جديدة سيحل بعد ثلاثة أيام فماذا أصنع بولديَّ؟ ومن أين أشتري لهما ثياباً جديدة؟

فناجته زوجته بصوت حنون، وقالت له: يا أبا فلان، لا تهتم لذلك، الأولاد دع أمرهم لله الذي خلقهم وهو يرزقهم ونم الليلة خلي البال، فسوف يأتي من لطف الله مما لا يدور ببالك، ولا يخطر في خيالك.

هنا قارنت الأميرة (نجمة الزمان) بين هذه الزوجة الصبور

الودود، وبين الزوجة الأولى الضجور النكود، وقالت لوصيفتها (نور الشمعدان): أخرجي من حيث لا يراك أحد من حزامك ديناراً ذهبياً لنعطيه أهل هذا البيت الطيب، بل قالت لوصيفتها: إنني لم أتمنَّ أنني لم أخرج من موقع نفوذي في بلادي إلا هذه اللحظة من أجل أن أعمل على أن أزوج المرأة الأولى برجل مثلها، وأن أكافئ هذه الزوجة الثانية بأن أجد عملاً مستمراً لبعلها يدر عليهما رزقاً شهرياً أو سنوياً كافياً.

ثم طرقت باب البيت فردت عليها الزوجة وخرجت تنظر من في الباب، فقالت لها الأميرة: نحن تجار غرباء، وقد مسنا العطش ونريد ماء للشرب.

فرحبت الزوجة بهما أجمل ترحيب، وأدخلت الأميرة إلى البيت، وقال زوجها وزوجته تقدم الماء للأميرة: والله لو كان عندنا لبن لقدمناه لكما، بل والله لو كنا نستطيع حيلة لدعوناكما إلى الغداء.

فشربت الأميرة الماء، وشكرتهما معاً، وقالت وهي تمد بيدها الدينار الذهبي الغالي للزوج وزوجته: إننا تجار غرباء، وقد أعطانا بعض أهل الخير قليلاً من المال لإنفاقه على أهل البيت المتحابين المتعاونين غير المتخاصمين فهل يكفي لشراء طعام للبيت لأيام قليلة وكسوة لهذين الطفلين؟

لم يكن الزوج يصدق بما سمعه، أما الزوجة فقد اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول بإباء شمم: ماذا أقول لوالدي في قبره وهو رجل عاش غنياً عن الناس حتى مات إذا ما تسلمنا صدقة، من هذا التاجر النبيل؟

فترفقت بها الأميرة قائلة: إن هذا ليس صدقة، بل إنه مما تستحقانه؛ لأنه مخصص لكما وأمثالكما، ونحن غرباء ولا يمكن أن نتحدث لأحد في هذا الأمر؛ لأننا سوف نغادر مدينتكم بعد وقت قصير تنتهي فيه أعمالنا التجارية.

وجعل الزوج يحسب صرف الدينار الذهبي بعشرين درهماً، لأن هذا هو صرف الدينار المعتاد، غير أن هذا الدينار بالذات يصرف بخمسين درهماً أو يزيد لأنه كبير الحجم صافي الذهب.

وعندما أخبرته الأميرة بذلك وجد أنه يكفي طعاماً لبيته لمدة شهر وكسوة لعياله وأمهم.

المطعم الذي يسيل له اللعاب:

كانت الأميرة (نجمة الزمان) قد مسها الجوع، فقررت أن تدخل مطعماً تأكل فيها شواء، ولم تلبث أن شمت رائحة شواء ذكية تداعب أنفها، ثم رأت المكان الذي تنبعث منه تلك

الرائحة مكتوباً عليه اسمه (المطعم الذي يسيل له اللعاب)، فقررتا الدخول إليه، غير أنهما سمعتا صاحبه يقول: يا عباد الله، الشواء، الشواء، الكباب، الكباب، الذي يسيل له اللعاب..

وسمعتا رجلاً يقول لصاحب المطعم: أليس هذا هو المطعم الذي يطبخ فيه لحم الكلاب؟

فقال صاحب المطعم من دون أن يفطن إلى أن الأميرة تسمع كلامه لأنه كان بينه وبينها حائل: هذا صحيح، ولكن خلق الله كثير. فقال الرجل: يعني أن من جربه ما عاد إليه؟

فقال صاحب المطعم: نعم.

فقال الرجل: هات يا صاحبي ما كنت تعطيني إياه مقابل سكوتي على ما أعرفه عن مطعمك، وإلا أعلمت الأمير الذي سيعاقبك وسيذيقك - إذا ما عرف - عذاب المصير، فأسرع صاحب المطعم بيده إلى جيبه يخرج منه قطعة من النقود، ويقول: يا صاح، خذها لا بارك الله فيها بشرط ألا تعود.

وهنا قالت الأميرة (نجمة الزمان) لوصيفتها (نور الشمعدان): لقد كرهت أكل الشواء في هذه المدينة لأنه من الجائز أن يكون من لحم الكلاب أو من لحم القطط أو حتى

من لحم الحمير، وأنا لا أعرف عنه شيئاً، ولذلك لا بد من أن تشتري سمكاً مقلياً أو دجاجة نذبحها ونعطيها صاحب المطعم في الخان يطبخها.

كانت الأميرة تدفع ما تحتاج إلى إنفاقه من الدنانير الذهبية التي في حزامها، وهي دنانير كبيرة غير شائعة إلا في خزائن الملوك، أو عند التجار الكبار، فعُرفت بذلك حتى وصل أمرها إلى الملك (قصام بن الفتاك) سلطان مدينة (منية السّفار) وما يتبعها من الأقطار، فظن أن الأمر فيه حيلة من ملك بلاد مجاورة لبلاده كانت بينهما عداوة شديدة لا سيما أن الشاب جميل ووسيم بما يظن أنه من الأسر المالكة في تلك البلاد.

فاستدعى الأميرة، وكانت سمت نفسها (قمر الزمان) فلما رأى جمالها واعتدال قامتها، ومظاهر النعمة التي تبدو عليها قال لها: أيها التاجر الوسيم، إنني لا أعرف إن كان أهلك قد تخيلوا ما سوف تكون عليه وأنت شاب عندما سموك (قمر الزمان)، فأنت قمر بلا شك، وما رأيت شاباً ولا حتى شابة في مثل جمالك وكمالك، ولو وجدت شابة مثلك من ذرية ملك لبذلت كل ما أملك لأتزوجها، وأفوض إليها أمر جزء من تدبير مملكتي، بل وما في خزانتي، فهل لك أخت أيها التاجر الوسيم في مثل جمالك واعتدالك؟ وهل تنتمي إلى أسرة ملك أو أمير؟

فقالت الأميرة: إنني أتمنى أيها الملك العظيم أن لي أختاً حتى تتشرف أسرتنا بالقرب منك، ومن العيش تحت رعايتك وعنايتك، ولكن

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فليس لي أخت - أيها الملك - بل أنا وحيد أبوي، وكاد يقول بحكم الواقع إنه وحيدة أبويها، ولكنه استدرك ذلك، وقالت: وأخبرك أيضاً أيها الملك أنني لو كانت لي أخت فإنها دون قدرك لأننا من التجار الذين ليست لهم علاقة بالأمراء ولا بالملوك، وإنما كان جدنا مجرد صعلوك إلا أنه اشتغل بالتجارة فربحت تجارته وسرنا على منواله.

ثم سأله الملك عن هذه الدنانير التي ينفق منها ولا توجد عند التجار في هذه البلاد، فذكرت له الأميرة أنها موجودة في بلاد أخرى، بل كثيرة الوجود قالت ذلك، لتتفادى المزيد من أسئلته المحرجة، فطلب منها الملك أن تذهب إلى تلك البلاد، وأن يعطيها بضائع مما يشتريه التجار من بلاده لتبيعها هناك وتحضر ثمنها من هذه الدنانير.

فوافقت على ذلك إلا أنها قالت: إن المشكلة أيها الملك

أنني لا أعرف السوق في البلاد البعيدة لهذه البضائع التي من بلادكم، فقال الملك إذاً أعطني ما معك منها، وسوف أعطيك أكثر من قيمتها دراهم وأشياء أخرى لا يدخلها الربا إذا بيعت متفاضلة في المقدار بالذهب، فوعدته بذلك.

ثم إن الملك أعجبه عقل الأميرة وصدق منطقها، وترفع أسلوبها في الحديث عن أسلوب العامة والدهماء إلى جانب معرفتها بالتاريخ وطبائع البلاد القريبة مما كانت تعلمته على أساتذتها، فقرر أن يضمها إلى سماره وخلصائه الذين يجالسهم، وذلك أمر جليل لا يحظى به إلا ذو الحظ العظيم من الناس.

مجالسة الملك:

كان للملك مجلس خاص به يخلو به مع من ذكرنا من خواصه من العلماء والأدباء والعقلاء النبهاء، وذلك بعد أن ينصرف الناس من مجلسه العام الذي يعقده بعد صلاة المغرب ويمتد إلى آذان العشاء، فيذهب للصلاة وبعدها إلى مجلسه ذلك، ويتناول معهم عشاءه الفاخر.

وكان قد قسم العمل في مجلسه بين ندمائه وجلسائه أولئك إلى أقسام بحيث لا يجتمع إليهم جميعاً في كل ليلة،

وذلك أنه يريد أن يكون من يجالسه مستعداً لكي يتحف الملك بمعلومة جديدة، أو قصة رمزية، أو حادثة واقعية، أو حتى حكمة مروية عن السلف، أو أبيات من الشعر غير المعروف فلا يكون الملك قد سمع به من قبل فيتأذى بإعادته، إضافة إلى ضياع وقته في سماعه، ولذلك كان بعض جلسائه يسافر إلى بلاد بعيدة فيها شعراء أو قصاصون فيأخذ ما يسمعه من كلام ويتحف به الملك.

وفي مرة من المرات علم الملك أن أحد جلسائه يذهب إلى شاعر مشهور فيطلب منه أن ينظم الشعر على أنه شعر قديم مأثور عن الأولين، فيلقيه إلى الملك، ولكن الملك علم بذلك فعاقبه عقاب الكذابين، وهو أن يركب من يثبت كذبه على دابة تكون حمارة أو بغلة منكساً بحيث يكون رأسه إلى ذنب الدابة ورجلاه فوق عنقها، ويطاف به البلد وهو ينادي عليه هذا جزاء الكذابين.

أما التاجر (قمر الزمان)، أو الأصح الأميرة (نجمة الزمان) فإنها صارت في كل يوم تحضر فيه مجلس الملك يكون لديها ما تتحفه به من قصة أو نادرة أو حكمة أو مثَل سائر مما لم يسمع به من قبل، بحكم بعد بلاده عن بلادها، ومع ذلك لم يكن يطلب حضورها في كل ليلة.

لقد كانت الأميرة (نجمة الزمان) سعيدة بحياتها الجديدة قرب الملك، وإن كانت تعلم ما يجره القرب من الملوك من متاعب، وبخاصة من سعي الحساد والواشين، أو من انكشاف أمرها على يد أحد التجار الذين قد يكونون سمعوا باختفائها وحرصوا على الحصول على جائزة والدها السلطان (قرمان بن البيلسان) التي أعلنها لمن يدله على خبر ابنته المفقودة.

الحب القاتل:

كانت للملك (قصام بن الفتاك) ابنة تحضر مجلسه بناء على إلحاحه عليها، على غير رغبة منها، ولكونه كان يردد على مسامعها أنها ربما تلي الملك بعده، أو تتزوج بملك يفوض لها بعض أمور مملكته، لذلك هي محتاجة إلى حضور هذه المجالس الثقافية لكي تعد نفسها لمثل هذا الأمر، واسمها (مياسة)، وقد صارت (مياسة) تتحرى الليالي التي تحضر فيها الأميرة مجلس والدها الملك فتحضر إعجاباً بالأميرة (نجمة الزمان) حيث رأت فيها الشاب الجميل الوسيم الذي كانت تتمنى الاقتراب منه والاقتران به.

ولم تكن تبالي أول الأمر بأن يلاحظ أحد عليها ذلك،

لأنها لم تكن تشعر بخطورته، ولا بما قد تذهب إليه منه، إلا أنها قد استحكم حبها لهذا الشاب، وصارت تحلم وهي جالسة يقظة فضلاً عن كونها تحلم في منامها باليوم الذي تصبح فيه زوجة له.

ولم تستطع أن تطيق صبراً على كتمان هذا الأمر، فأفضت به إلى أمها، وهي امرأة ضعيفة الإرادة، لا تريد أن تحرم ابنتها مما تتمناه، إلا أنها تعلم أن زواجها من تاجر غير معروف الأصل، ولا يعرف ما كانت تعمل أسرته أمر يصعب أن يتم، ويكاد يكون من المستحيل أن يوافق عليه والدها الملك، لأنه يأمل أن يزوج ابنته من ملك، أو ابن ملك، أو أمير أو ابن أمير معروف بإمرته على منطقة من المناطق على الأقل.

ومع ذلك بحثت الأمر مع من تثق بهن من نسائها ومنهن امرأة واسعة الحيلة، عظيمة الدهاء، فرسمت النسوة خطة ظنن أنها ناجحة، وهي أن تتقرب الأميرة من الشاب التاجر حتى تصبح لها منزلة من قلبه، وذلك بإغداق المنن عليه، ومن ذلك أنها سعت لدى والدها الملك أن يسكن في دار الضيافة الملحقة بالقصر، وأن يعامل كما يعامل الضيوف الكبار.

فسكنت الأميرة (نجمة الزمان) هي ووصيفتها (نور الشمعدان) في دار الضيافة لكونها أكثر أمناً، ولكونها

قريبة من مجلس الملك.

هذا ما قالته النسوة، ولكن (مياسة) ابنة الملك كانت تقصد من ذلك شيئاً آخر.

إنه لتكون الأميرة (نجمة الزمان) التي رأتها شاباً وسيماً قريبة منها، وذلك من أجل أن تجلس معها من غير أن تكون قد خرجت بالفعل من قصر الملك.

وتكرر ذلك، وكانت الأميرة (نجمة الزمان) لا تلقي إلى ذلك بالاً في أول الأمر؛ غير أنها صارت تتخوف منه شراً، بل توجس خيفة من تصرف هذه الأميرة اللاهية (مياسة).

فصارت تتقرب منها، وفي مرة من المرات رفعت طرف ثوبها الذي كان يغطي جسدها أمام الأميرة عندما ذهبت الوصيفة (نور الشمعدان) لبعض أمرها مما كشف الأمر جلياً للأميرة (نجمة الزمان)، وعرفت منه أنها تتعرض لها تظنها شاباً يمكن أن يقترب منها، فانتهرتها بغضب قائلة: إن الملك (قصام) قد أحسن إليها وإلى رفيقها - تريد وصيفتها (نور الشمعدان) - وإنها لا يمكن أن تقابل إحسانه بالإساءة، وخدش عرض ابنته الأثيرة لديه.

إلا أن ذلك الصد لم يقابله من الأميرة (مياسة) إلا التمادي

والإصرار.

وأخيراً صارحت الأميرة (نجمة الزمان) بأنها تريد الزواج منها - تظنها شاباً - وأنها سوف تفعل للتاجر (قمر الزمان) كل ما يريده، وتوفر له كل ما يطلبه من أجل أن يوافق على ذلك.

ولما قالت لها الأميرة (نجمة الزمان) إن والدها الملك لا يوافق على زواج ابنته من تاجر مجهول الهوية بالنسبة إليه أجابتها بأن ذلك ليس من شأنها وإنما ستدبره بنفسها.

كيد النساء:

فاتحت أم البنت زوجها في أمر حب ابنتها (مياسة)؛ بل غرامها بهذا التاجر الوسيم، وأخبرته أنها عرفت من حال ابنتها أنها سوف تفعل أي أمر لتحقيق ذلك، ولو كان ذلك الأمر يخدش الحياء، أو يجلب لوالديها العار والسبة عند الناس، قائلة: إن الأولى بالملك أن يوافق على زواجهما تفادياً لحدوث أمر فظيع، فاستنكر الملك ذلك، وقال: كيف أزوج ابنتي وهي سليلة الملوك بهذا التاجر الصعلوك؟ الذي من الصحيح أنه عاقل وعارف بالأمور، وأنني لن أجد لابنتي زوجاً يفضله في رجاحة عقله، وحسن تصرفه، إلا أن الأميرة لا يمكن أن يتزوجها إلا أمير أو نبيل من أسرة نبيلة معروفة؟.

فقالت زوجته: لقد سمعت من ابنتك الأميرة قولاً كلما ذكرته اقشعر جلدي، وهو أنه إذا لم توافق أنت ابنتك على زواجها من هذا التاجر فإنها سوف تمكن من نفسها أحد خدم القصر الأدنياء، وستعلن ذلك للناس، ثم تقتل نفسها، فماذا يكون موقفنا إزاء ذلك؟

فقال لزوجته: أنت تعلمين أن زواجها منه مستحيل، وأنه لن يقبله أحد من رعيتي وأهل مملكتي فضلاً عن أسرتي، فكيف أقدم عليه ؟

فقالت زوجته: لدي فكرة تنقذنا مما نحن فيه، وهي أن تزوجها منه سراً، وتخبره أن إعلان زواجهما أمر لا يمكن أن تقدم عليه، لأنه غير مقبول من الأسرة الحاكمة ومن الشعب، ولذلك سوف ترتب لهما سفراً إلى بلد مجاور لبلادك، لك فيه أقارب وأصدقاء وتعطيها من الثروة ما يكفي ليعيشها عيشة الأمراء، وأنه لا مانع من أن يسافر بها إلى بلاده إذا أراد على أن لا يعلن أنه زوجها إلا بعد أن يصل إليها.

وقالت زوجة الملك: وإذا سافرا وأمضيا في البرية ثلاثة أيام أو أربعة ترسل جنداً من جنودك ممن تثق بهم فيتنكرون في هيئة لصوص وقطاع للطريق، ويقتلونه وينهبون ما معه من دون أن يؤذوا ابنتك.

وبهذا ستتخلص من جميع ما يضايقك!.

فلم يقبل الملك هذه الفكرة، ولم يرفضها؛ لأن فيها قتل رجل غير مستحق للقتل لا سيما أنه لم يرَ منه إلا خيراً، وإن كان لا يعلم علم اليقين أنه غير جاسوس ربما يضمر من الكيد له ولبلاده غير ما يظهر.

قال: وإذا قتلناه استرحنا من الشك في أمره.

أرسلت زوجة الملك إلى تلك المرأة الواسعة الحيلة بأن تتعرض للملك وتسأله عما أهمه وكدر عيشه الذي بدا ظاهراً عليه، حتى أنه لم يعد يشتهي الطعام كما كان عليه الأمر من قبل.

وعندما فعلمت المرأة ذلك وكانت قريبة للملك ومقربة من زوجته ألحت عليه حتى أخبرها بما كدره، فأشارت عليه بالرأي نفسه.

وهكذا عزم على إنفاذه.

هذا ما كان من أمرأ الملك، وأما ما كان من أمر زوجته فإنها أخبرت ابنتها الأميرة (مياسة) بموافقة والدها الملك على زواجها من التاجر (قمر الزمان) بشرط ألا يعلن زواجهما على الشعب، وأن يسافرا إلى بلاد بعيدة حتى لا يعرف بأمر زواجهما

أحد.

وقد قبلت هذا الأمر لأنها تتصرف بعاطفتها دون عقلها.

أما المعنيُّ الأول بالأمر، وهو الأميرة (نجمة الزمان) فإن الأمر بدا لها أشبه ما يكون بالكابوس المزعج الذي لا يستطيع المرء أن يتخلص منه، حتى إنها تمنت أنها لم تغادر بلدها، ولا تركت قصر والدها حيث لا تقع في مثل هذه المشكلة.

وذلك أن الملك (قصام) استدعاها على انفراد وقال لها:

أيها التاجر (قمر الزمان) إنك تعلم أن أهم ما يسعى إليه الإنسان أن يسعد أولاده، وأن يستر بناته، وإن ابنتي الأميرة (مياسة) قد وقعت في حبك نتيجة لحضورها مجلسي الذي تحضره، وهي تريد أن تتزوج، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى أي فتاة في مثل سنها تريد أن ينتهي حبها، أو لنقل أن يتوج حبها بالزواج، ولكن بالنسبة إلى ابنتي الأميرة (مياسة) فإن الأمر مختلف، لأن الناس وأعرافهم وعاداتهم لا تقر أن تتزوج ابنة الملك من تاجر غريب مجهول البلد والنسب.

قال الملك: ولذلك أردت أن أعمل أمراً لا يخالف هوى ابنتي ولا يكون فيه غضاضة عليَّ ولا حطاً من رتبتي، وهو أن أزوجك إياها سراً، على أن تذهب بها إلى بلد بعيدة سواء

أكانت بلدك أم غيرها من البلدان، وسوف أعطيكما من المال ما يكفل لكما العيش الرغيد طيلة زواجكما السعيد.

لم يكن هذا العرض مزعجاً للأميرة (نجمة الزمان) فحسب، بل كان مقلقاً مفزعاً لأنها إذا رفضته فسيكون ذلك سبباً لغضب الملك عليها، وربما يسجنها إلى مدة غير معلومة، ويصادر ما معها من المال، ولا تستطيع حتى بأن تأمل في كتابة كتاب أو رسالة لوالديها تطمئنهما فيها على أنها لا تزال موجودة وأنها تأمل في العودة إليهما.

والأدهى والأمرّ في ذلك أنه إذا قبلت سينكشف أمرها، لأن الأميرة (مياسة) سوف تتصرف معها كما تتصرف الزوجة مع زوجها، وذلك سيكون فيها انكشاف سرها وافتضاح أمرها، بل ربما جعل الملك يتيقن من كونها كما قيل له: جاسوسة احتالت للوصول إليه، لكي تتجسس عليه.

ولم يدر في خلدها أن الأمر قد يكون فيه أفظع من ذلك.

الزواج السري الصوري:

لم يكن أمام الأميرة (نجمة الزمان) إلا الموافقة على عرض الملك معللة نفسها بعد أن تشاورت سراً مع وصيفتها بأنه يمكنهما أن تهربا في البرية قبل أن يفتضح أمرها، أو حتى

يختفيان من الأميرة (مياسة) بعد أن يصلا البلدة التي سيرسلهم الملك إليها.

وفي يوم حزين كئيب من أيام الشتاء الباردة غادرت ميّاسة مع ركب مؤلف من خادم مخلص للأميرة (مياسة)، وجارية لها سوداء، ووصيفة في مثل سنها، ومن زوجها (المزعوم) قمر الزمان الذي هو الأميرة (نجمة الزمان)، ورفيقه الذي هو وصيفتها (نور الشمعدان).

وقد قارنت الأميرة نجمة الزمان في ذهنها خروجها من قصر والدها حيث ظنت أنه تنتظرها منه المتعة والفائدة وبين خروجها هذا اليوم الذي تنتظرها فيه الفضيحة والهلاك، فلم تجد وجهاً للمقارنة إلا بأن تبعدها عن خاطرها.

أرادت الأميرة (مياسة) أن تقترب من الأميرة (نجمة الزمان) رغم أن أهلها قد أمروها بأن لا تفعل ذلك، ولكن الأميرة (نجمة الزمان) صدتها بعنف، وردتها بألفاظ نابية قائلة: إن الملك (قصام) قد أمرها ألا تقترب من ابنته إلا بعد عشرة أيام!.

وقد انكمشت الأميرة (مياسة) على نفسها مصدقة ذلك، معللة نفسها بأن الأيام طويلة بينها وبين زوجها !.

ما أرادته الأقدار:

أراد الملك (قصام) شيئاً وأرادت ابنته (مياسة) شيئاً آخر، ولكن الأقدار أرادت شيئاً مختلفاً عن الاثنين كليهما.

فقد كانت الأميرة (نجمة الزمان) قد اتفقت مع وصيفتها على أن تهربا من هذه الرفقة بعد أن تفارقا مدينة الملك (قصام) بثلاثة أيام، وأن تفرا منها إلى الأمام في أول ليل بهيم مؤملين ألا يصل إلى الملك خبر هروبهما إلا بعد أن يكونا قد جاوزا حدود بلاده، أو وصلا إلى مكان يختفيان فيه حتى يقف الطلب الذي سيعينه الملك في متابعتهما.

لذلك تسللتا في أول الليلة الرابعة في جنح الظلام، ولم يكن معهما أي شيء من الشراب أو الطعام إلا ما كان في الحزام الذي تمنطقت كل واحدة منهما به من الدنانير الذهبية والجواهر الأربع.

وفي آخر تلك الليلة هجم جنود الملك الذين أرسلهم لقتل الأميرة (نجمة الزمان) ووصيفتها، وكان الظلام حالكاً وهم متنكرون، فقتلوا خادم الأميرة (مياسة) ظناً منهم أنه التاجر (قمر الزمان) كما قتلوا راعياً للإبل تخيلوا أنه رفيق ذلك التاجر.

وهربوا متنكرين بعد أن سلبوا ما كان مع الركب طبقاً للخطة التي كان قد رسمها الملك (قصام).

وكان الملك قصام قد قدر أن ابنته ومن معها من النسوة والخادم والراعي سيبقون في مكانهم لأن اللصوص المزعومين سيأخذون إبلهم منهم، فيرسل من رجاله آخرين ينقذونهم ويعيدونهم إليه.

أما (مياسة) فإنها عندما رأت اللصوص يقتلون خادمها المخلص وراعي الإبل أصيبت بما يشبه الجنون، وشقت ثيابها، وقابلت الجنود، فلم يعرفوها في ظلمة الليل وظنها أحدهم وصيفة من الوصيفات، فضربها على رأسها ضربة شديدة أفقدتها صوابها فأغمي عليها ولم تفق إلا قرب الفجر.

هذا وقد وصل الجنود إلى الملك (قصام) عائدين بعد ثلاثة أيام من تنفيذ مهمتهم فأخبروهم بأنهم نفذوها على الوجه المطلوب بأن قتلوا التاجر الشاب ورفيقه.

وأما رجال الملك الذين كان أعدهم لاسترجاع ابنته ومن برفقتها، فإنهم لم يعلموا بأمر المؤامرة لقتل التاجر المزعوم ورفيقه، وإنما عرفوا من النساء أن لصوصاً خرجوا عليهم وقتلوا خادم الأميرة وراعي الإبل ونهبوا ما معهم.

الشقاء بعد النعمة:

سارت الأميرة (نجمة الزمان) ووصيفتها (نور الشمعدان) في البرية المدلهمة لا هادي لهما إلا النجوم التي تختفي أيضاً خلف الغيوم.

وكانتا تركضان طول الوقت حذراً من أن يكون أحد في أثرهما من الذين في الرفقة يتتبعهما مع أنه ليس من الممكن أن يراهما في هذا الليل.

كانت الأرض التي يسيران عليها لحسن حظهما أرضاً مستوية ليس فيها وديان عميقة، ولا تلال صخرية ما عدا صخوراً منتثرة كانت تلْكُمُ الرجلين أحياناً بدون أن يستطيع السائر فيها أن يراها في الليل البهيم.

وكان الهدف الذي يسعيان إليه كافياً لحثهما على مواصلة الهرب رغم الصعاب.

وفي آخر الليل سمعا ما جعل الفزع يزعزع كيانهما، ويزلزل عقولهما، وهو حركة ذئب كان يعترض طريقهما ثم يذهب بعيداً، ويعود ثانية وكأنما هو يريد أن يشاغلهما ليبدد قوى كل واحدة منهما.

وقد قرأت الأميرة فيما قرأته من طبائع الحيوان أن الذئب

يفعل ذلك إذا كان جائعاً، إلا أن الخطر العظيم يأتي منه إذا عوى عواء يمده ويرجعه، لأن معنى ذلك أنه يدعو غيره من الذئاب إلى الحضور عنده ومعاونته على الهجوم.

لم يكن بيد الأميرة ووصيفتها أي شيء يمكن أن يدافع به الإنسان الذئب، حتى ولا عصا غليظة مع أن مدافعة الذئب وجهاً لوجه تحتاج لجرأة وتجربة وقوة لا تملكها امرأة مترفة مثل الأميرة.

فكان ما فعلتاه أن جعلت الواحدة منهما تلتقط الحصا من الأرض وتقذف به جهة الذئب، فتسمع صوت وقع براثنه على الأرض دون أن تتيقن من أنها قد أصابته.

وقد أدركتهما العناية الإلهية حين وصلتا إلى نار خامدة كان أشعلها مسافرون في آخر النهار، فوضعا عليها حطباً فاتقدت وهابتها الذئاب فأبعدت.

لقد استعذبت الأميرة الجلوس عند النار، فهو راحة من السير المضني على القدمين، وهو أيضاً أمان من هجوم الذئاب، ولكنه مخاطرة في أن يصل إليهما من يفترض أنه يتتبعهما مهتدياً بضوء النار.

كما أنهما استعجلتا انبلاج الفجر، وهذا أمر مفرح إلا

أنه محزن لأنه يفضح وجودهما.

وهكذا صارت تتنازع المرأتين مشاعر شتى بعضها متناقض، وبعضها منسجم.

ومن ذلك أن قالت الوصيفة (نور الشمعدان) للأميرة (نجمة الزمان): ماذا لو كنا نهرب إلى حيث الخطر فنصل إلى مكان يختبئ فيه لصوص أو قطاع طريق أو حتى جنود من جنود الملك (قصام)؟

فلم تزد (نجمة الزمان) على أن همهمت بالدعاء مبتهلة إلى الله تعالى أن يحفظهما ويعمي عنهما عيون الأشرار من اللصوص وقطاع الطريق.

يوم طويل:

كان ليلهما طويلاً متعباً شاقاً مليئاً بالمصاعب، والإرهاق النفسي، وكان نهارهما كذلك، إذ تسللا بعد طلوع الفجر حتى وجدا مجرى وادٍ كان حفر حفرة في الأرض بجانب تلة حجرية، وفيه مكمن بين أشجار صحراوية وبين صخور التلة، فنامت المرأتان فيه نوماً عميقاً قصيراً، ولم تشعرا إلا بغنم ترعى حولهما، وكانت الوصيفة أول من رآها ففرحت بذلك، لأن هذا يدل على أنهما قرب قرية أو مورد ماء لأن الغنم لا

تستطيع الابتعاد كثيراً عن القرى والمياه.

غير أن الأميرة قالت: إن في هذا خطراً فماذا نصنع لو رآنا أحد ونحن على هذه الحالة؟

وهنا كانت شاة ذات ثدي حافل باللبن قد اقتربت من الوصيفة فأمسكت بها بهدوء، وأشارت بحزم إلى الأميرة أن تأتي وترضعها كما كانت ترضع أمها عندما كانت طفلة صغيرة، فامتنعت الأميرة وقالت: أنا لا أذكر عندما كنت أرضع أمي، فقالت الوصيفة: إننا إذا لم نشرب من لبن هذه الشاة فإننا سنهلك عطشاً، ولا نستطيع المشي من الهزال، وهنا أخذت الأميرة ترضع من ثدي الشاة المحاط بأشواك النباتات البرية، وصار الزبد يخرج من شدقها كما يخرج الزبد من شدق المصروع.

وكادت الوصيفة أن تضحك لمرآها لولا أن الموضع ليس موضع ضحك، وعندما تضلعت الأميرة من حليب الشاة، وظنت أنها قد استكملت كل ما فيه جذبت الوصيفة شاة أخرى وجعلت ترضعها، وقد أثار منظرها الغريب الأميرة فانفجرت بالضحك الذي لم تكمله لأنها ذكرت حالتها، والمصير المجهول الذي ينتظرها.

بقيتا في الوادي حتى غربت الشمس، ولاحظتا الجهة التي سارت إليها الغنم في المساء لأنها جهة القرية بطبيعة الحال، وكانتا تعلمان أن البقاء الطويل في هذه البرية سوف يوقعهما في أيدي الملك وأعوانه.

فلما جنهما الليل سارتا إلى جهة القرية كما ظنت، وسارتا طويلاً وهما على غاية من الإعياء والجوع والعطش، ولكنهما نسيتا أكثر ذلك للخوف المسيطر عليهما.

الحبس في القرية:

وصلتا القرية بالفعل، وحمدتا الله على أن حدسهما لم يخطئ في بيان موقعها، وهي قرية صغيرة ليس فيها أضواء واضحة إلا ناراً موقدة ظنتا أنها لقوم يعالجون لديغاً من سم الأفعى، ويساهرونه حتى لا ينام فيسري سم الأفعى في جسده ويموت.

وقالت الأميرة لوصيفتها: يجب أن نحمد الله ونشكره على أن سلمنا من حيّات الصحراء، فقد بلغني أنها أكثر سماً من حيّات البيوت.

وحمدتا الله تعالى وشكرتاه بالفعل، رغم ما هما فيه من التعب والهم الذي حمل الوصيفة على قولها: إن المصيبة أننا لا

ندري أين نذهب، وربما نقع على بيت كبير القرية الذي سيتقرب إلى الملك بتسليمنا له، وإذا لم يكن الأمر كذلك فإن القرية صغيرة لا يخفى فيها شيء على أهلها، ولو تركناها وأخذنا في البرية لهلكنا حتى قبل أن يجدنا رجال الملك.

وفي هذه الأثناء شاهدا في الظلام شبحاً فزعتا لمرآه ثم تبين لهما أنه رجل يحمل على رأسه شيئاً وقد رآهما مثلما رأتاه.

وعندما وصل إليهما كانت رائحة كريهة قد سبقته إليهما منبعثة من الشيء الذي يحمله على رأسه، ومع ذلك قالتا له: إننا تاجران خرج علينا لصوص في البرية وأخذوا ما معنا إلا دنانير كنا نخفيها لنفقتنا، وقد قاتلناهم عليها فجرحنا أحدهم وفر الباقون وهم ثلاثة، فهل نجد (خاناً) في القرية؟

فأجابهما، لا، لا يوجد خان ولا أي مكان غير العراء إلا المسجد، وربما كان المسجد أيضاً مغلقاً في الليل، لأن بعض الناس الذي كانوا يبيتون فيه من الأجانب سرقوا سراج المسجد مرة من المرات، ثم أراد أن يسير عجلاً عنهما، فقالت الأميرة أيها الرجل: إننا في ورطة ومعنا نقود، ولذلك لا نريد مساعدة إلا بتوفير ملجأ لنا، فإذا استطعت أن تجد ذلك الملجأ فإننا سوف نعتبره كالخان الذي يستأجره التجار فندفع ثمن الإقامة والطعام.

وهنا تحركت غريزة الطمع عنده فاستعاد ما قالت له فأعادته عليه.

فقال: أجل اتبعاني على بعد، وإياكما أن يراكما أحد قريباً مني، ولم يكن يوجد أحد من المارة غيرهم.

عندما دخل بيته قصد كومة من السماد فألقى ما معه عليها، ولذلك عرفت الأميرة سر خروجه في هذا الليل البهيم وفي الوقت المتأخر من الليل، وهو أن يحضر نفايات قد رآها إلى بيته يضيفها إلى كومة السماد الموجودة فيه حتى يبيعها من المزارعين.

أدخلهما غرفة في بيته وهو يرحب بهما، ولكن دون أن يقدم لهما طعاماً أو شراباً، وبادرهما بأن طلب منهما نقوداً للغداء والعشاء غداً.

فسارعت الأميرة إلى سؤاله عن المبلغ الذي يريده وأعطته أياه، ولم تفكر في كونه قليلاً أو كثيراً لأن هذا ليس مهماً عندهما في سبيل أن تجد ملجأ تختفي في مع وصيفتها، وأما الرجل واسمه (حمدان) فإن الأمر مختلف بالنسبة إليه فقد أضمر في نفسه أن يطلب ضعف ما يحتاجه من طعام جيد لهما ولزوجته وله وولده الصغير الذي يبلغ الرابعة من العمر، وأن

يزيد على ذلك مثله لكي يبقى له مبلغاً يعتبره مكسباً.

وقال في نفسه: سوف تشبع - يا حمدان - لأول مرة منذ عيد الأضحى الذي مضت عليه أشهر من اللحم، وسوف تشبع زوجتك التي ألحت عليك بأن تشبعها لحماً ولو مرة في الشهر.

ولم تكن زوجته تعرف أنه كان يخرج إذا رأى زبالة أو قمامة في آخر الليل لكي يضيفها إلى كومة الزبالة التي في بيته حتى تتضخم ويبيعها سماداً للفلاحين.

لذلك لم تعرف شيئاً عن وجود هذين الرجلين إلا بعد أن نبهها من نومها فجراً وقال لها: أبشري بالرزق يا أم الولد، عندنا تجار أغنياء سوف نشبع منهم ونكسب من ذلك، ولكن إياك أن تخبري أحداً بأمرهم لأن معنى ذلك أن نحرم مما سيأتينا منهم.

عندما كان (حمدان) يتحدث همساً مع امرأته بذلك كان التاجران، أو على الأصح الأميرة ووصيفتها، قد غاصتا في نوم عميق حرمتا منه طول الليل وبعد إرهاق وتعب شديد.

وفي الصباح لم يقدم الرجل إليهما طعاماً فقالت الوصيفة للمرأة: أما عندكم طعام في الصباح؟ إننا جائعان! فقالت المرأة: أعطونا درهماً نشري لكم حليباً من امرأة عندها غنم للبن،

فأعطتها نقوداً للحليب وللسكر، وكان هذا طعام الفطور، غير أن الغداء كان غير ذلك، فقد أخذ (حمدان) نصف النقود واشترى بالنصف الآخر لحماً وخضرات، وأعدت امرأته بنفسها خبزاً طازجاً، فكانت وليمة كوليمة العيد للجميع، أما الأميرة ووصيفتها فبسبب الجوع والتعب، وأما أهل البيت فبسبب بخل حمدان وتقتيره على نفسه وأهل بيته.

وعندما حان العشاء لم يكن الأمر يختلف عن ذلك كثيراً، فسر الجميع.

لقد استمرأ صاحب البيت البخيل هذه الحال، فصار يوفر نقوداً ويأكل طعاماً ممتازاً طالما حرم منه، ولذلك كان يذكر امرأته قائلاً: إن هذين التاجرين رماهما الله في بيتنا بسبب دعاء أمي الصالح الله يغفر لها، كانت تدعو و.... فقاطعته زوجته قائلة: أمك الله يرحمها ماتت قبل سبع سنين، ودعاها ما قبله الله إلا اليوم؟

لم يكدر على حمدان إلا خوفه أن يستدل أحد بدليل على وجودهما عنده، أو أن يخطر ببالهما الرحيل فيرحلان عنه، ولذلك كان اخترع حكاية أوحكايتين عن أناس غرباء يبحثون عن تجار قتلوا أحد رفقائهم.

الطامة الكبرى:

إلا أن الطامة الكبرى بالنسبة إليه ولم يدر أنها أيضاً بالنسبة إليهما أن الأمر وصل من الملك إلى رئيس القرية يخبره بأن تاجرين أحدهما شاب جميل الوجه، والثاني شاب دون ذلك قد قتلا أحد رجال الملك وأخذا مالاً من رجاله واختفيا.

ولكن (حمدان) البخيل لا يمكن أن يدع ذلك يحرمه من النعمة، لأن الملك لن يعطيه ما يعوضه عنه، وقد يعاقبه على إخفائهما حتى قبل أن يأتي الأمر منه بالقبض عليهما، إذ المفروض أن يخبر رئيس القرية، فشاور امرأته فوافقته على رأيه بأن يبقيا الأمر سراً، ولا يبوحان به لأي شخص.

شؤم البخل:

لكن شؤم البخل لاحقه، فقد اشترى لحماً من الجزار الوحيد في القرية مرتين أو ثلاثاً لم يفصل بينها إلا يوم أو يومان، فاستنكر الجزار ذلك وقال لحمدان ببراءة: - يا حمدان - ما هيب عادتك تشري اللحم هكذا، فقال حمدان: هذا ما هو لي أنا، وصاني عليه قريب لي، غير أن هذا الجواب لا يصلح للمستقبل، لذلك كان يضطر إلى الذهاب إلى قرية مجاورة يشتري منها لحماً يخفيه عن أهل قريته غير أن القرية الأخرى

قريبة، ولا يأمن من أن يخبر أهلها أهل قريته، لذلك اتفق مع الأميرة على أن يشتري ذبيحة صغيرة يذبحها في البيت، ويصنع من لحمها قديداً يأكلون منه.

ولكن حتى هذا لم يسلم من التكدير، فقال له أحد جيرانه الذين يصلون معه في المسجد: يا حمدان أنا شميت منك رائحة لحم، هو زاركم أحد من أقاربكم التجار؟

ولم يعلق على ذلك، وقال له أحدهم: أنا مريت من بيتكم أمس وشميت رائحة لحم يطبخ، ولا هي عادة أني أشمه عندكم.

وهذا ما سمعه، ولكن الذي لم يسمعه بنفسه أن جماعة من أهل القرية استنكروا حاله فقال أحدهم: ألم تروا (حمدان) قد سمن وزاد وزنه، ويعلق آخر على ذلك بقوله: هذا صحيح وهو بخيل من أين له يأكل الأكل الذي يسمن؟ فعلق ثالث يقول: ربما تكون له علاقة بالأمير الذي في القرية الكبيرة المجاورة، ويعزمه إذا جاءه ضيوف.

وفي مجلس آخر قال أحد جماعة المسجد الذي يصلي فيه، رأيت البارحة (حمدان) يتجشأ مثل الذي شبعان من اللحم والدسم، وهو بخيل معروف، فقال الآخر: وأنا شفته ينقش سنونه أكثر من مرة.

فعلق ثالث مشهور بصدق الحدس واستنتاج الأمور غير الواضحة بقوله: يا جماعة ما تظنون التجار الذين يبحث عنهم الأمير هم عنده؟

وكان من الجماعة قريب له فأسرع يبلغه بهذا الخبر ليأخذ حذره، وليس ذلك اعتقاداً منه أن التجار كما يقولون عنده، وإنما لمجرد العلم.

وقد أسرع (حمدان) يبحث الأمر مع امرأته فاتفق رأيهما على أن يتخلصوا من التاجرين سراً لأن الملك سيعاقبهما إذا عرف أنهما أخفياهما.

فأخبرا الأميرة ووصيفتها بالخبر وأن الأمر جد، وأنهما ينبغي أن يغادرا مسكنهما والقرية الليلة وألا يخبرا أي أحد قد يمسك بهما بأنهما كانا عندهم.

وقد اتفقوا على أن يتنكر التاجران بلباس أسود رث من لباس النساء وأن يخرجا بالليل.

التنكر الصحيح:

إن هذا التنكر بلباس النساء يعيدهما إلى الصحيح من أمرهما فهما امرأتان، وإن كان يبعد بهما عن حالتهما التي

عرفتا بها في بلدهما مترفتين منعمتين تلبسان اللباس الغالي النفيس.

وقد أحضرت امرأة حمدان لباساً قديماً متسخاً من لباس المرأة أخذت بعضه من أمها، وبعضه من امرأة محسنة، تعطي النساء المحتاجات من ثيابها القديمة، وباعت هذه الثياب القذرة عليهما.

وعندما انتصف الليل، وكانت السماء مظلمة فقد كان الوقت آخر الشهر خرجتا من البيت الذي سجنا فيه نفسيهما اختياراً ولكنه خروج أسهل منه الحبس.

وقال حمدان لهما: اقصدا جهة هذه النجمة، فإذا طلع الفجر فاختبئا في أحد الجحور أو بين الصخور، وإذا جن الليل بعد ذلك واصلا الاتجاه نفسه، وستصلان بعد ثلاث ليالٍ أو أربع إلى بلدة يقال (المقبلة) فاسألا عن رجل فيها اسمه (مقران) فهو غني ومحسن ولديه ملجأ للفقراء الذين تتقطع بهم السبل يجدون فيه الطعام والشراب إلى أن يتهيأ لهم السفر، وإياكما أن تذكراني أو تذكرا أنكما كنتما عندي.

بلدة المقبلة:

لن نقص على القارئ الكريم ما لقيته الفتاتان من عناء

وشقاء حتى وصلتا بلدة المقبلة لأن ذلك يشجيه بل يزعجه، ولكننا نقول: إنهما وصلتا بالفعل، وسألتا امرأة عن ملجأ فلان فدلتهما عليه، وبقيتا فيه ثلاثة أيام لكنهما لاحظتا أنهما محط أنظار الجميع لجمال الأميرة، والمظاهر الباقية من نشأتها المنعمة عليها، ولاحظتا أن بعض الرجال صاروا يتقربون إليهما، بل وأتى أحدهم إلى حيث ينامان مع عدة نساء، ومعه المشرفة على المكان لم تمنعه من ذلك بحجة أنه سيطلع عليه.

فأسرعتا إلى حيث يصلي الرجل في المسجد وتعرضتا عليه، وذكرتا له أنهما شابتان في الملجأ ويخشيان على نفسيهما، وإنهما لذلك يرجوان أن يسمح لهما بالبقاء في بيته الذي يسكنه بعيداً عن الملجأ، وإنهما سوف تعملان في البيت إذا أراد خادمتين أو كالخادمتين.

وكان الرجل ليناً عطوفاً، فوافق على ذلك، وأمر زوجته أن توفر لهما ما أرادتاه، وفعلت ذلك ولكن دخلتها الغيرة على زوجها، والخوف من أن يلتفت إليهما وبخاصة أن الأميرة على غاية من الجمال ونضارة الصبا، فحصرتهما في نطاق ضيق وصارت ترسل لهما بعد إبطاء وتمنع أردأ الطعام، وغالباً ما يكون مما يفضل من الآكلين من أجل أن ينفرهما ذلك، وأن تغادرا البيت، أما هما فقد شعرتا بالأمان مما كانا يخافان

وبخاصة أن الرجل رجل كريم محترم من الجميع، ولا يتطرق إليه الشك، لذلك لا يظن أبداً أن الملك سوف يفتش بيته بحثاً عنهما وبخاصة أن الذي يطلبهما هما رجلان تاجران، وأما هما الآن فإنهما امرأتان بائستان.

ولكن هذه المعيشة السيئة، والأذى الذي يقابلهما في مكانهما المنزوي من البيت، بإيعاز من ربة البيت صارت لا تطاق، وقد أمضيتا في هذا البيت شهراً أو يزيد، عرفتا أن طلب الملك قد خف عنهما، إضافة إلى أن بلدة (المقبلة) هي من آخر حدود بلاد الملك (قصام بن القصاف).

وقد تعرضتا للرجل الكريم (مقران)، وأخبرتاه بأنهما ترغبان في الذهاب إلى أهلهما، وأنهم يسكنون في بلدة خلف سلطنة السلطان (قرمان) والدها. قالتا ذلك بعد تشاور بينهما من أجل أن تعودا إلى بلدهما بالفعل، لأن الأميرة ملت حياة التنكر وأنهكتها الغربة، والمعاملة السيئة إضافة إلى الأحداث الفظيعة التي مرت بها وهي تزلزل ألباب الرجال، ولكنها لم ترد أن تذكر بلادها وبلاد أبيها بأنها ستعود إليها لئلا يشك أحد في أمرها.

وقد أحسن الرجل المحسن فاستأجر لهما مركباً مع قافلة مسافرة إلى تلك الجهة بعد أن أخبرهما أن حدود مملكة الملك

(قرمان) تبعد مسافة عشرين يوماً، وذكر أن صاحب القافلة الذي سيأخذهما معه هو رجل أمين ومعه جوار قد ملكهن ملك يمين لا يسافر إلا وبعضهن معه.

الأحداث الجسام:

سارت القافلة إلى البلدة الواقعة على حدود مملكة قرمان سيراً معتاداً ليس فيه جديد، والأميرة (نجمة الزمان) تريد أن تصل إلى بلادها وتقابل والدها السلطان (قرمان)، وتعتذر إليه عما سببته له من ألم، كما أنها سوف تستقر في بلادها، وتعود إلى حياة العز والكرامة التي افتقدتها في أكثر سفراتها.

وقد حطت القافلة بسلام في البلدة المذكورة، ولم يتركهما صاحب القافلة إلا بعد أن سلمهما لصاحب قافلة أخرى ليوصلهما إلى أول حدود مملكة الملك (قرمان).

لم تدر الأميرة (نجمة الزمان) ولا وصيفتها (نور الشمعدان) أن أحداثاً جساماً قد وقعت في بلادهما، وأن ابن أخي الملك قرمان قد اعتدى عليه فقتله وانتزع الملك قسراً من دون أن يشاور أهل الحل والعقد في البلاد؛ لأنه يعلم أنه لو شاورهم لرفضوه، وقد استعان بجيش من الأشرار، ومن غير

ذوي الخبرة بتدبير الملك فأساؤوا معاملة الناس، ونشروا الفساد في المملكة.

ومما زينوه لهذا الأمير الشرير القاتل أن ينفق الأموال بسخاء، فأنفقها بتبذير، ولما رأى أن المال الموجود في خزانة السلطان يوشك على النفاد أزمع أمراً سيئاً، وهو أن يغير على القوافل التجارية متنكراً ومن معه في أزياء اللصوص وقطاع الطرق، ومستغلاً في ذلك الأمان والاطمئنان الذي كان أولئك يشعرون في حكم عمه السلطان (قرمان).

وصادف أن بدأ بالإغارة متنكراً على القافلة التي فيها الأميرة ووصيفتها، فأخذها، ولمح وهو في معركة السيطرة عليها جمال فتاة معهم هي الأميرة (نجمة الزمان)، ولم يعرفها فأسرع يريد أن يستولي عليها بل أن يهتك عرضها دون انتظار، ولم يكن معه إلا خادم واحد فامتنعت الأميرة ونفرت وشتمته وهي لا تعرف إلا أنه كبير اللصوص الذين أغاروا على القافلة، فأراد خادمه طعنها بالسيف فمنعه الأمير من ذلك، وقال: أنا لا أحب أن أنام مع فتاة ميتة دعنا نقضي حاجتنا منها ثم نقتلها.

كان الأمير ينظر إلى الأميرة، أما خادمه فقد نظر إلى وصيفتها، ولذلك انشغل عن سيده الأمير، ووضع سيفه على الأرض مطمئناً أو غافلاً فأسرعت الوصيفة تلتقطه من الأرض

وتهدده بأنها ستضربه به إذا تحرك، وأسرعت تعطي السيف للأميرة (نور الزمان) وهي تتعارك مع الأمير الشرير، فلم يكن أمام الأميرة وهي تدافع عن نفسها إلا أن ضربت الأمير المعتدي بالسيف على رأسه ضربه قوية قطعت أحد عروق الرأس، فانبعث منه الدم غزيراً والأمير يقول وهو يدور كالمخبول ولا يرى شيئاً مما حوله من حمرة الدم الساخن الذي سال على عينيه: قتلتني المرأة. قالها مرتين أو ثلاثاً ثم سقط على الأرض وهو يتخبط في دمه وما لبث أن مات.

أما خادمه فإنه عندما رآه كذلك هرب ونجا بنفسه.

وأما بقية رجال القافلة فإنهم كانوا بين هارب وجريح وقتيل، واغتنمت الأميرة ووصيفتها فترة الفوضى والاضطراب فأسرعتا إلى وادٍ ذي أشجار ملتفة فاختبأتا فيه مع أن أحداً لن يبحث عنهما، لأنه لا يعرف أحد ما صنعتاه إلا ذلك الخادم الهارب، وأما بقية رجال الأمير فإن كل واحد منهم أخذ ما قدر له أخذه من القافلة حتى إن بعضهم أخذ الإبل وبعضهم أخذ ثياب الرجال والنساء وتفرقوا.

أما الأميرة ووصيفتها فإنهما أخرجتا ثياب الرجال التي معهما، ولبست كل واحدة ثوبها التي تتنكر فيه، وذلك خوفاً في اعتقادهما من أن يلحق بهما من يطالب بدم الأمير الذي قالت

الأميرة لوصيفتها: لقد قتلته دفاعاً عن نفسي فهو يريد أن يدنس شرفي، ثم يقتلني أيضاً، ولم تدر أنها في الواقع قتلته أيضاً لأنه قتل أباها، وأن القدر انتقم منه بذلك.

بقيت الأميرة ووصيفتها في ثيابهما الرجالية التنكرية فترة، وقد أمنتا عندما دخلتا ملك والدها ظناً منها أنه لا يزال على قيد الحياة، وأنه لا يتعدى أحد على أحد في مملكته ما عدا هذا الشقي وأعوانه الذين جزما أنهم جاؤوا من خارج البلاد.

الدهشة والحزن:

عرفت الأميرة ووصيفتها بعد ذلك أن الملك (قرمان) قد قتل، وأن الذي قتله هو ابن أخيه ولكنهما لم تعلما على وجه اليقين مصير ابن أخيه.

وأما ما كان من أمر أهل البلاد فإنهم كانوا ساخطين على ما فعله ابن أخي الملك من قتل الملك قرمان واستيلائه على الملك بالقوة، فالسلطان قرمان عادل صالح لن يجدوا من يعوضهم عنه، وابن أخيه رجل فاسد ظالم يعرفه الجميع بذلك.

ولذلك عندما عرفوا بموت ابن أخيه لم يحزنوا بل إنهم فرحوا، ولكنهم اختلفوا فيمن يولون سلطاناً عليهم إذ ليس

لملكهم ولد ذكر، ولا يعرفون في أسرته من يصلح للملك إلا طفلاً امتنع أكثرهم عن توليته لأنه سيكون ألعوبة بيد من حوله، ورأى بعضهم أن يبحثوا عن رجل عاقل من غير أسرة السلطان، ولكنهم خافوا ألا ينصاع له الناس، وصاروا فريقين منقسمين، وقد اشتد النزاع بينهم حتى خافوا الفتنة فمشى عقلاء من عقلائهم بينهم، وقالوا: سنعمل حلاً للنزاع وهو أن نخرج إلى خارج سور البلد يوم الجمعة، وأول شخص يطلع علينا قادماً للمدينة نوليه الملك فذلك يزيل النزاع، ولا نخسر معه شيئاً لأنه إن أحس حتى نجد غيره أصلح منه أو حتى يكبر الصبي الذي هو من أسرة السلطان فذاك، وإن لم يحسن سهل علينا خلعه، فوافقوا جميعاً على ذلك حسماً للنزاع وحلاً للخلاف.

كانت الأميرة ووصيفتها تقبلان على عاصمة ملك والدها يوم الجمعة وإذا بهما يريان جموعاً من الناس يتقدمهم كبار القوم وفرسان من فرسانهم، وكانت الأميرة (نجمة الزمان) تسير في المقدمة تتبعها وصيفتها وصاحب بغلتين استأجرتاهما خلفهما فأسرع الفرسان إليهما وخضعا للأميرة كما كان الناس يخضعون لأبيها السلطان، فاستولت عليها الدهشة وملأتها الحيرة وهي تقول في نفسها: هل عرفوني وكيف ؟

ولكنهم كانوا يخاطبونها باسم الذكر بل بلفظ السلطان قمر الزمان لأنهم سألوها عن اسمها فأخبرتهم أنه (قمر الزمان)، ولم يكن بإمكانها أن تفعل شيئاً، بل لم يكن في مقدورها أن تقول شيئاً حتى يزول اللبس الذي ران على عقلها.

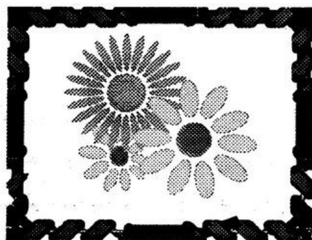
ولما وصلت لكبار القوم ذكروا لها ما قرروه وأن سلطانهم العادل المحبوب (قرمان) قتله ابن أخيه الشقي (الفاتك بالفرسان)، وأنهم قرروا أن يملكوا عليهم أول من يقدم المدينة في هذا اليوم الجمعة، وأن من حسن حظهم أن يكون ملكهم شاباً وسيماً عليه علامات العقل والسؤدد، ويبدو أنه سليل أسرة نبيلة.

وقد واتتها في هذه الآونة فكرة الانتقام لمن ساعدوا على قتل أبيها ونشر الفساد في البلاد.

باشرت الأميرة (نجمة الزمان) أو الملك الجديد (قمر الزمان)، الذي اتخذ رفيقه (نور الشمعدان) وزيراً له، العمل في السلطنة فبادرت إلى معاقبة المجرمين الذين ما لؤوا على قتل والدها، ثم أسرعت بنشر العدل وإرسال الحرس لتأمين السبل، وأزالت المظالم التي كان فرضها ابن عمها الشقي على الناس، وذلك كله بسرعة وعجلة، وإن كان بحنكة وعقل ولم تخبر بحقيقة أمرها إلا والدتها، وطلبت منها أن تبقي ذلك سراً.

وذلك أنها تضمر أمراً نفذته بأن أخبرت كبار القوم في مجلس ضمهم وهي تعرفهم من معرفة أبيها وأعوانه المخلصين، وأعلنت لهم أنها أنثى وأنها (نجمة الزمان) ابنة سلطانهم (قرمان)، وأنها إنما قبلت المنصب من أجل أن تجنب البلاد الفوضى والشقاق، ولذلك تعلن لهم تخليها عن منصب السلطان ليلتمسوا غيرها له.

إلا أن القوم وقد عرفوا منها العدل والحكمة، ورأوا فيها النبل والسياسة، وأنها سارت على خطا والدها تشاوروا وقرروا تعديل دستورهم وأن يعينوها سلطانة على البلاد !.



حَمَد الصَّيَّاد

حمد الصياد

خرج (حمد بن قَصّاص) من قريته إلى قرية أخرى مجاورة معه بندق الصيد التي لا تكاد تفارق كتفه، فهو مولع بالصيد، وهو أيضاً محتاج إلى ما يصيده، وكان قد سمع أن في ناحية ذات رمل بعيدة عن مرامي صيده ظباء ترعى، وكان خروجه من القرية التي تليها المنطقة الرملية مع طلوع نجمة الصباح التي أطلت على ذلك العالم القروي المحافظ على ما كان عليه منذ قديم الزمان قبل الفجر بقليل.

كان حمد يحمل على كتفه بندقته، ومعها قربة صغيرة فيها ماء لا يزيد على شربة صحراوية أو نحوها، وتمرات معدودة معها كسر من الإقط قد لفها في خرقة غير نظيفة، وهذا هو كل زاده لهذه الرحلة الشاقة من رحلات الصيد، ولكنه كان قد اعتاد على ذلك عندما كان يذهب من قريته للصيد ويعود إليها بعد غروب الشمس بقليل، فيجد زوجته قد هيأت له ما تيسر لديها من العشاء الذي كان غالباً من (المرقوق) الذي ليس فيه من الإدام إلا البصل الكثير وقليل من الودك، ولكنه عشاء كاف لأمثاله، فهو من القمح الجيد الذي ينتج من البلاد، ويجعله الجوع والتعب شهياً أيضاً، ولكنه في هذه المرة سيعود إلى قرية أخرى بعد غروب الشمس لينطلق

في الصباح التالي إلى قريته.

سار (حمد) مبتعداً عن القرية حتى وصل إلى منطقة صخرية خالية تماماً من آثار الأقدام، وإذا به يرى على البعيد أرنباً قد اعترضت طريقه وهي تجري بأقصى سرعتها حتى اختفت تماماً بين الأحجار، فشعر في نفسه بشيء من الضيق، وقال: (يا الله الخيرة عرضة أرنب!!).

لقد كان مثل غيره من أهل قريته يتشاءمون باعتراض الأرنب في الطريق إلى قضاء الحاجة.

واستمر يسير حتى زالت الشمس، وكانت صاحية، بل حارقة في ذلك اليوم حتى قال (حمد) في نفسه وقد كادت حرارتها تنضجه:

هذه الشمس اليوم نازلة من طبقة شديدة الحرارة، يريد بأنها نازلة من طبقة أنها قد تدنت إلى الأرض من موقعها في السماء مقدار طبقة من طبقات السماء.

كان حمد يشعر بالعطش والجوع.

أما الجوع فإنه قد كافحه بهذه التميرات التي أخذ يأكلها وهو يسير على قدميه، وصار يمص نواها حتى ينقيها تماماً من أي أثر للحلاوة، ويقول ضاحكاً: والله ما تلقى فيها

الذرة شيئاً من الحلاوة.

وأما الماء فأنه ملأ منه فمه، وترك الباقي وهو يشتهيه في القرية الصغيرة ذخراً وعدة لوقت حار يأتي بعد ذلك، لأن الشمس تكون في الظهيرة أشد منها حراً في الضحى.

وصل حمد القصاص إلى الأرض الرملية التي ذكرت له بأن فيها آثار الظباء، ورأى الآثار بالفعل، فتتبعها ولكن الشمس لم تغفل عن لفحه بسياطها من فوق رأسه ومن بين يديه ومن خلفه.

كان يسير في بسيط من الرمل يغلق النظر فيه على البعد كثيب قصير اعتقد في نفسه أن الظباء خلفه مستترة عن الأعين كالعادة، ولذلك عندما وصل الكثيب كان يبطئ من سيره ويطأطئ رأسه، ويضع بندقيته موضع الاستعداد للرمي، لئلا يرى الظباء أو تراه فجأة فتنفر شاردة منه.

ولكنه عندما طلع الكثيب لم يروا إلا آثارها ممتدة بامتداد سهل رملي آخر.

وقد ناجى نفسه قائلاً.

آثارها هذه جديدة، ولو كانت قديمة محتها الرياح التي تسوي الرمل.

لذلك سار متتبعاً تلك الآثار على الرمال، ولكنه شعر بالتعب والعطش، فحدث نفسه قائلاً: أما التعب فهو عملي والصيد كله تعب، والإنسان ينسى تعبه إذا صاد الظبي، وأما العطش فإنه لا دواء له إلا شرب هذا الماء الذي بقي في قربته فشربه كله، وتصبب منه العرق، فشعر بشيء من الراحة ثم واصل طريقه، متتبعاً آثار الظباء يحمل بندقته وقربته الفارغة، ورأى الآثار التي يتتبعها صاعدة لكثيب رملي قصير أيضاً فخيل إليه أنه كثيب عالٍ لولا أنه يعرف المنطقة، وأنه ليس فيها شيء من الكثبان العالية.

وتسلق الكثيب بالفعل، فغاصت رجلاه في الرمل الحار الناعم حتى صار يقتلعهما منه بصعوبة، ونظر إلى شيء لم يعهده من نفسه من قبل وهو أن الخطوة التي يخطوها لا تتعدى شبراً واحداً، أو هي تقل عن ذلك، لقد تقاربت خطاه ومعنى هذا أن الجهد والحر والتعب بلغ منه مبلغه.

وعندما أشرف من هذا الكثيب الذي صعده بصعوبة أجال بصره في السهل بعده الذي اتضح له أنه ليس سهلاً خالصاً، وإنما هو مجموعة كثبان صغيرة، ولم ير إلا آثار الظباء، أما الظباء فإنه لم ير منها شيئاً.

وأخذ يحدث نفسه عن السبب في ذلك فقال: ربما كان

القانص فلان قد سبقه اليوم إلى السير خلف الظباء مما نفرها من المنطقة، غير أنه رجع إلى منطقه يسفه نفسه بقوله: لو كان جاء هنا لرأيت آثار قدميه، ولا أثر هنا لأي إنسان.

الموت عطشاً:

شعر حمد بالعطش الشديد ينتابه، وشعر بأن المرئيات بدأت تختلط أمام ناظريه، وبدأت تتوارد إلى ذهنه أخبار من ماتوا عطشاً في الصحراء، وذكر ما كان الناس يقصونه من قصص عنهم، إلا أنه سفه ما سمعه عن ذلك بقوله: الذين ماتوا عطشاً لم يعرف الناس ماذا جرى لهم لأنهم وجدوهم ميتين ولا سجل أحد ما جرى لهم.

ولكن ما جرى له هو الواقع الذي يعيشه الآن.

والأدهى من ذلك عليه أنه شعر بأن حمل بندقته العزيزة لديه، بدأ يثقله إلا أنه بدأ يعجز عن حمل جسمه، ولكن ماذا يصنع بها وهي كل ما يملك، وهي أغلى ما يملكه نفاسة لديه؟

لقد هداه تفكيره إلى أن يدفنها في أصل شجيرة مجاورة لشجرة كبيرة ليس في هذه النقرة وهي الوهدة من الرمال من الشجر غيرها.

ولم يدفنها تحت الشجرة الكبيرة لأن الناس على قلة مرور هم بهذه المنطقة، قد يقعون عليها، وإنما دفنها تحت شجرة صغيرة بالقرب منها.

وشعر بشيء من الراحة الجسدية لإلقاء البندق، وإن كان ذلك مصحوباً بالشعور بالشقاء.

الخلاص يتراءى:

مالت الشمس تجاه المغيب، ولكن العطش لم يمل عنه، والتعب اشتد عليه، ومع ذلك فإنه كان لا يزال يستطيع الحركة وإن كانت حركة ضعيفة، فإن ذهنه كان يمتلأ رويداً رويداً بالأفكار السود عن الذين يموتون عطشاً في الصحراء، وشعر بأنه قد قارب أن يصير منهم.

وبعد معاناة جسدية ونفسية لا يستطيع أن يصفها إلا خبير رأى الخلاص يتراءى أمام ناظريه، أو هكذا اعتقد على هيئة سهل مستو من الأرض قليل الرمل، ففرح بذلك فرحاً غامراً إذ تخلص من انتزاع رجليه من الرمال، وفسر وجود هذا السهل بأنه ربما كان فيه بئر أو قرية مع أنه لا يعرف قرى ولا منازل في ذلك المكان.

وقد صح ما توقعه إذ وصل فجأة إلى بئر ليس عليها

حاجز، بل هي من آبار الصحراء التي لا يعرف المرء بوجودها إلا إذا رآها فاغرة فاها، أو رأى آثار الماشية التي ترد إليها حولها.

أطل برأسه في البئر فرأى أن ماءها بعيد، ورأى إضافة إلى ذلك أن أسفلها مظلم، وذلك لكون الشمس قاربت أن تغرب.

ولكنه صار يفكر بأنه قد يموت عطشاً على شفير هذا البئر، فطرأت على خاطره فكرة أن يمر بالبئر أناس قد يكون معهم دلو يستخرج به الماء من البئر، إلا أن ذلك ليس بمضمون.

كانت البئر واسعة مربعة مطوية بالحجارة، أي قد وضع لها ما يشبه الحيطان من الحجارة، لا يستطيع المرء أن ينزل إليها إلا إذا كان مسكاً برشاء، وهو حبل قوي، وأنى له ذلك.

نزل من إحدى زواياها التي كانت تضيق وتتسع حتى إن البئر صارت في الأسفل مستديرة غير مربعة، فعرف أنها من آبار الأعراب أو من آبار الذين لا يحسنون أن يطووا الآبار طياً محكماً.

استمر في النزول في البئر حتى انقطع الحصا الذي يغلف جوانبها ويكون لها كالحائط، ولكن الماء لا يزال دونه أكثر

من قامة الرجل من جانب أملس قد زاده انسكاب الماء عليه وتكراره ملاسة.

فأسقط نفسه في قاع البئر التي وجد ماءها ليس غزيراً لحسن حظه إلا أنه لم يفكر في ذلك، وإنما فكر في أنه وصل إلى الماء فكان إذا وقف وصل الماء إلى نصف جسمه.

الحسرة بعد اللذة:

شعر بلذة غامرة لوصوله الماء، وأسرع يشرب منه غير أنه تذكر أن من يكون شديد العطش فإنه لا ينبغي له أن يتضلع من الماء دفعة واحدة، وإنما ينبغي أن يشرب قليلاً وإلا ضره الماء، غير أن عقله قد غاب فشرب حتى تضلع، وشعر بالراحة التي لا توصف، وكان أول ما فكر فيه أنه حيي بعد موت، فهو الآن في عداد الأحياء وليس في عداد من ماتوا عطشاً كما كان يفكر قبل ذلك.

أما كيفية خروجه من قاع البئر المظلم الذي كان قد أظلم تماماً لأن الشمس كانت غربت أو كادت فإن ذلك لم يكن مشكلة له قبل أن يروى من الماء، غير أنه الآن قد روي من الماء واحتاج للخروج من البئر، وتذكر أن من أهم ما لديه أن يذهب إلى استخراج بندقه قبل أن يسبقه إلى مدفنها أحد، فقال

في نفسه: أملأ قربتي من الماء وأعود في هذه الليلة، ولكنه تذكر أن الظلام قد ران على المنطقة ولا يعرف طريقه لأنه كان في حالة من لا يتذكر الأشياء على حقيقتها عندما وصل إلى البئر، ومن ذلك أنه تحسس كتفه التي اعتاد أن يعلق قربة الماء عليها فلم يجد القربة، ولا يدري أين وضعها، إن كان وضعها بالفعل أو أين سقطت منه.

والصعب في الأمر أن الحجارة التي كانت قد طويت بها البئر، وهي التي يكون فيها فراغ يضع فيه النازل للبئر أو الصاعد منها إبهام رجليه أو بعض أصابعها قد انتهت، وليس في جوانب البئر إلا هذا الطين الأملس، فأخذ يتحسس جوانبها بيديه في الظلمة التي استحكمت بالفعل، فوجد آثار نقر صغير في جانب البئر، فقال في نفسه: هذا هو الذي يصعد عليه.

كان ارتفاع الجوانب الطينية للبئر يزيد على قامتي الرجل، وبعدها تبدأ الحجارة في حيطانها، فوضع أصبع رجله الإبهام في النقر الصغير، ورفع نفسه فعرف أنه قد ارتفع بالفعل، وجعل يتحسس برجله حائط البئر لعله يعثر على آثار نقرة أخرى أعلى منها يضع فيها إبهام رجله الأخرى، ووجدها بالفعل.

شعر براحة غامرة عندما عرف أنه قد ارتفع عن قاع

البئر، وعن مائها لأن ذلك أولى الدرجات في الخروج.

وعندما وصل مرتفعاً إلى حيث مبتدأ الحجارة التي تحيط بالبئر غشيه فرح عظيم وقال في نفسه: الآن قد وصلت إلى حيث أستطيع الخروج، ولكنه وجد في جانب منه شيئاً لم ينتبه له عندما كان نازلاً، علل ذلك بكونه ليس في كامل تفكيره، ولا يدري في شدة الظلمة ما هو ذلك الشيء إلا أنه أشبه بالغار الصغير أو بحفرة في جانب البئر، وسماه في نفسه رفاً لأنه يشبه الرف، وهو في الحقيقة فراغ في الحجارة كانت قد سقطت حجارته وبقي ما فيه متماسكاً تشبه الحجارة فيه العقد المعتاد من حجارة البناء، وقد زاده مرور الدلاء التي تنضح الماء فراغاً لا سيما أن الأرض خلف الحجارة كانت رخوة، ولذلك احتاجوا إلى طيها بالحصا.

جلس داخل هذا الرف الذي بدا له كالمكان المحفور في جانب البئر، فتنفس الصعداء، وقال في نفسه: أنا حظي كبير أولاً سلمت من الموت عطشاً في الصحراء، ثم وجدت هذا البئر من حيث لم أقصدها، ثم وجدت هذا المكان.

ولكنه لم يكد يتم هذه الكلمات في فكره حتى شعر بصوت كريه مخيف لم يكن سمع بمثله إلا مرة واحدة في حياته، وذلك فيما يتذكر عندما اضطره البحث عن أرنب

لجأت إلى حجارة، فأخذ يعمل على إبعاد تلك الحجارة وإذا بفحيح لا يستطيع أن يسميه صوتاً، وإذا بأفعى تنساب هاربة منه من ذلك المكان الضيق، وتذكر أنه علت جسمه قشعريرة آنذاك، وأنه هرب تاركاً المكان والأرنب التي فيه.

لقد كان ذلك الصوت الكريه هو الصوت الذي سمعه الآن، ولكن الأمر مختلف في هذه المرة، فهو في بئر مظلمة، وحتى لو كان على وجه الأرض فإن الظلام هو السائد، ولكنه يستطيع أن يهرب عن المكان أما هنا فكيف يهرب ؟.

ثم شعر بخوف لا يذكر أنه أصابه مثله من قبل، وزلزل كيانه وكاد يفقد شعوره عندما شعر بأن شيئاً ساخناً أملس قد احتك به، إنه جسم الحية الأفعى!.

ومن دون أن يفكر تزحزح عن المكان وإذا به يسقط في قاع البئر سقوطاً غير متوازن.

بل كان سقوطه على رجله في قاع البئر.

لم يكن رد فعله على هذا السقوط إلا الفرح لكونه سلم من نهشة الأفعى التي لو قدر عليه أن تنهشه، فإنه سوف يموت ميتة لم يشهدها أحد.

كان ماء البئر بارداً، ويبلغ ارتفاعه إلى نصف قامته،

ولذلك لم يستطع أن يجلس فيه لو فكر في الجلوس في تلك اللحظة التي لم يكن همه إلا في أن يتخلص من قرب الأفعى، لذلك وقف في ماء البئر غير أنه شعر بعد فترة أن أحد رجليه تؤلمه ألماً شديداً إذا ما وقف، ثم زاد ذلك الألم حتى اعتقد أن رجله قد كسرت.

لقد تذكر بعد أن عاد إليه صوابه أن سقطته كانت على رجله، وأن ماء البئر ليس من الكثرة بحيث لا يؤذي من يسقط فيه، وقال في نفسه: لو كان الماء كثيراً لما تأذت رجلي، ولكنه عاد ليقول في ذهنه: الحمد الله الذي لم يجعله كثيراً، وإلا لكنت مت غرقاً لأنني لا أحسن السباحة.

الحبس المظلم:

ظل واقفاً في قاع البئر المظلم لا يستطيع أن يحاول الخروج لئلا تنهشه الأفعى التي لا يمكنه أن يعرف مكانها في هذا الظلام، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بأن يظل واقفاً.

وعندما تيقن من أنه ظل حياً، وأن خطر الأفعى عليه ليس متيقناً صار يتذكر ما سمعه عن أنواع الحبوس والسجون، ومن ذلك ما سمعه عن (الدّبّاب الذي ليس له باب) وهو سجن كان الحكام يضعون فيه من يريدون أن يحبسوهم ويهينوهم،

ويكون غرفة محكمة في الأرض أو مبنية على ظهرها، ولكن ليس لها باب، وإنما في سقفها فتحة يسقطون السجين منها إلى الغرفة، فلا يستطيع الخروج منها حتى ولو لم يكن عنده حارس.

وقال في نفسه: تلك أهون مما أنا فيه، فتلك لها أرض يابسة يستطيع السجين أن يجلس عليها أو ينام، أما أنا فإنني لا أستطيع إلا أن أظل واقفاً.

هذا وقد اشتد الألم في رجله عليه، وصار يئن ويحاول أن يصرخ غير أنه تذكر خطأً أو حقيقة أن صراخه ربما يدل الحية على مكانه أو ينبهها إليه إن كانت قد غفلت عنه، فصار يكظم حتى الصراخ.

كان أمله الوحيد في أن يأتي من يريد الاستقاء من البئر فيعرف مكانه فيخرجه، ولكن هذا بعيد في هذا الليل، فالسكان عددهم قليل، وأغلبهم يأخذ للأمر أهميته بحيث يرد إلى مثل هذه البئر في النهار.

الليل الطويل:

كان منهكاً بل كان بلغ التعب والإنهاك منه مبلغاً لم يستطع هو وصفه، ولذلك عندما طال وقوفه لم يشعر إلا به

يكاد يختنق ويغرق في بحر عظيم متلاطم الأمواج فقد حلم بأنه كان في مركب من المراكب التي كان سمع بقصصها في القديم، وإن لم يركب البحر قط، فهاجت ريح شديدة قلبت المركب الذي هو فيه فغرق ركابه وهو أحدهم، وقد شعر بالغرق عندما دخل الماء إلى أنفه بدلاً من الهواء.

وقد انتبه من حلمه المزعج والذي جعله ينتبه منه هو الغرق إذ كان جسمه من فرط التعب قد أنزلق وهو واقف لم يشعر بذلك فدخل الماء إلى أنفه بدلاً من الهواء، لأن وجهه نزل عن صفحة الماء.

وهنا عرف وهو لا يكاد يقوى على التقاط أنفاسه بأنه لم يكن في مركب غرق به في البحر، ولكنه لا يزال في هذا السجن المظلم المطبق، وأن الماء الذي دخل إلى أنفه هو ماء البئر الذي كان واقفاً فيه.

ومرة أخرى حمد الله وأثنى عليه الذي لم يجعله يموت غرقاً كما كاد يموت عطشاً، أو بأنياب الحية الضخمة، ورغم ما يعانيه من ألم فظيع في رجله ومن تعب من هذا الوقوف الطويل في البئر فإنه شعر بأنه واقع مر يأمل في أن يتغير قريباً، وقد زايله الخوف من أن تتبعه الحية، قائلاً في نفسه: إنها لو كانت تريد ذلك لفعلته.

وهنا جاءه الفزع من شيء آخر، فقد تواردت إلى ذهنه قصص كان قد سمعها عن الجن والشياطين، وأنهم أهل الأرض الذين يعيشون تحتها، ولذلك تكون الآبار قريبة من مساكنهم في الأرض، بل تخيل ما كان سمعه من بعض الشيوخ القصاصين من أن الحيات قد تكون في الأصل جنيات من الجن تصورت بصور الحيات حتى تخبل الناس.

وخيل إليه أن تلك الحية التي رآها إنما هي جنية تصورت في صورة حية، وعلل ذلك بكونها لم تلدغه وقال: لو كانت حية حقيقية للدغتني عندما كنت بجانبها، وهنا شعر بفزع لا مهرب منه؛ لأنه في ظلمة لا يستطيع أن يرى منها حتى بصيص نجم في السماء، لأن البئر ليست متقنة الحفر، بل كانت مائلة.

وهنا أسعفه الإيمان بالله، ومعجزة القرآن الكريم في طرد الجن الكفار والمردة من الشياطين، فصار يقرأ ما يحفظه من القرآن، وهو قليل من قصار السور، ويرفع صوته يريد هذه المرة أن تسمعه الحية حتى تبتعد عنه.

وخيل إليه أن ذلك قد آتى ثمرته، وأنه الآن لم يعد يسمع شيئاً مما كان يخيل إليه في السابق أنه حركة للحية.

لا يدري كم مضى من الليل أو بقي منه، إلا أنه شعر

أيضاً أن جسمه وقد هده التعب قد انزلق مرة أخرى إلى قاع البئر في نعسة لم تطل لذتها؛ لأن الماء وصل إلى وجهه فاستعاد الوقوف الذي كان غير طبيعي، لأنه كان مستنداً إلى حائط البئر الذي كان أملس زلقاً لا يستطيع المرء أن يستند إليه استناد اعتماد.

ومن الطريف أنه وقد روي من الماء وليس بقربه ما يوضع في الفم إلا الماء شعر بالحاجة إلى البول غير أنه كظم نفسه، ومنع بوله حذراً من أن يفسد ماء البئر على الشاربين الذين يردون الماء بعد ذلك.

ولكنه شعر وهو بين النائم واليقظان، كما لو أن ماء ساخناً يداعب فخديه فانتبه إلى أنه البول الذي حبسه قد خرج رغماً عنه.

بشائر النور:

سمع زقزقة طائر تصل إليه خفيفة فكاد عقله يطير فرحاً لأن ذلك مبشر بالنور، إذ الطيور تزقزق فرحة بتباشير الصباح.

ولكنه لم يجد أي شيء آخر يدل على مجيء النور الذي يرجو أن يجيء معه الفرج، إلا أنه شعر بأنه قد غفا وهو مستند إغفاءة نبهه منها انزلاق جسمه في الماء، فرفع رأسه ليرى أن

حلقة البئر في أعلاها قد تميزت عن غيرها فتيقن من أنه الصباح.

ولكن أيأتي الصباح معه بالخير؟

لقد كان أمله عظيماً في ذلك.

ولم يطل تخيله حتى سمع أصواتاً تبين له بعد ذلك أنها صوت أعرابيين وقفا على البئر، ثم ما لبثا أن أحدرا دلواً إلى البئر ليستقيا الماء فأمسك حمد بالدلو، وسمع أحدهما يقول لصاحبه: هذه البئر فيها جن، اتركها هي وماءها معنا ماء يكفينا حتى نصل بئراً غيرها.

وصاحبه الأعرابي الثاني يعلق على ذلك ويقول: الجن من هم ؟ والله ما في هذه البئر إلا الماء الصافي.

سكت (حمد القصاص) حتى ارتفع الدلو من البئر فأمسك به وهزه وهو يصوت بصوت خفيف لا يكاد يبين، ففزع الأعرابيان وقال أحدهما لصاحبه: صدقت يا فلان هذه البئر والله فيها جن. ثم أسرعا يجذبان دلوهما ويبتعدان عنها..

الفرج:

لم يمض كثير من الوقت حتى سمع صوت حركة لا أثر

فيها لكلام آدميين فقال في نفسه: هذا رجل وحيد عساه يساعد ني، وعندما نزل الدلو أمسك به (حمد) بكل ما يملك من قوة، فقد كان ندم على ترك دلو الأعرابيين.

أطل صاحب الدلو في البئر فوجد أن في مائها الذي لا يكاد يرى فيه شيء فأسرع ينظر ويحد النظر متنقلاً من جانب فوهة البئر إلى جانب آخر حتى تيقن أن في البئر رجلاً.

كان صاحب الدلو واسمه (غفصان قشّاد) رجلاً حضرياً عاقلاً عطوفاً، خيل إليه أن رجلاً سقط في هذه البئر وأنه لا بد من أن ينجده حتى يكسب أجره عند الله.

فربط رشاءه وهو الحبل الغليظ الذي فيه الدلو بحجر كبير، وانحدر نازلاً إلى البئر وهو يمسك بالرشاء حتى وصل إلى (حمد) الذي قبض عليه بيديه ورجليه بل وكل جسمه، لئلا يفلت منه.

ووجد (غفصان) صعوبة في أن يخلص نفسه من حمد، وإن كان عرف أن ذلك يرجع إلى الخوف ومحبة النجاة فتركه ممسكاً به فترة لم يحاول أن يخلص جسمه منه، حتى اطمأن حمد إليه فقال (غفصان): أبشر بالسلامة، لكن أخبرني قصتك فقال حمد: بصوت ضعيف سأخبرك إذا خرجنا من هذه

البئر.

وقد تعلقا بالرشاء حيث بدأ (حمد) بمساعدة (غفصان) على أن يصعد شيئاً فشيئاً، يرفعه (غفصان) من أسفله حتى خرجا من البئر، فألقى (حمد) بنفسه على الأرض، وقال لصاحبه: الحمد الله والشكر لله، ما أحسن هذه الأرض.

فقال له غفصان: يا أخي، هذه أرض ليست حسنة. ظن أنه يريد وجه الأرض حول البئر، فقال حمد، أنا أقول ما أحسن الأرض كلها.

فلم يعلق غفصان على ذلك لأنه ظن أن (حمد) يهذي!.

وبعد قليل راح (حمد) في إغفاءة لم يستطع غفصان أن يوقظه منها إلا بجهد.

وعندما استيقظ وجد أن صاحبه قد وضع أمامه تمراً وإقطاً مما كان يحمله زاداً له في السفر.

أكل (حمد) من التمر ومن الإقط، وقد عاد إليه وعيه فأخذ يقص على غفصان قصته.

وهو يقول ويكرر في أثناء ذلك أنه أي غفصان قد أنقذه فهو مدين له بحياته، ثم قال حمد وهو يشرق بدمعه: يا أخي ما اسمك؟

فيجيبه بقوله: اسمي (غفصان)، فيقول حمد ويكرر قوله: أنت أنقذت حياتي ولا أدري بماذا أجازيك لأنني لا أملك شيئاً.

فقال غفصان: يا (حمد) أنا لا أريد جزاء من أحد، ولكنني في مشكلة إن ساعدتني على الخروج منها تكون قد جازيتني.

قال غفصان: المشكلة يا حمد أنني ذاهب إلى البلدة الفلانية لأن لي ديناً على رجل فيها، وهي تبعد كما تعلم ستة أيام من هنا، وهذا ليس مهماً لأن معي بعيري، وأشار إليه ولم يكن حمد فطن إليه أول الأمر، وهذه المنطقة منطقة مخيفة لأن فيها أعراباً سراقاً يسرقون من يمر من هذا الطريق وبخاصة إذا كان مثلي ليست معه بندق، وحتى لو كانت معه فإنه لا تطاوعه نفسه أن يقتل أحداً ولو اعتدى إليه.

وإذا ذهبت معي إليها فإنني سوف أعود بك أو أرسل معك من يعود بك إلى قريتك، وأعطيك شيئاً تهديه لأهلك وتكون بهذا قد كافأتني كما تقول على إنقاذ حياتك، فسر (حمد) لذلك، ولكنه ذكر ذلك الألم الذي كان أحس به فظيعاً في رجله.

فأخذ (غفصان) يتفحصها قائلاً: أنا رجل أجبر الكسور وأعرف الإصابات في الأرجل، ثم قال لحمد: أبشر، فرجلك ما فيها كسر، ما فيها إلا رضوض، ودم فاسد من الضربة وأظن أن رجلك وقعت على صخرة في ماء البئر، وكان حمد قد فطن إلى أن صخرة كانت موجودة في ماء البئر لم يلق لها بالاً.

وأضاف غفصان: سوف أكمد رجلك وأعالجها وسوف تبرأ بإذن الله.

الاتفاق:

اتفق الرجلان فيما بينهما على ما ذكره (غفصان) وعرفا أنهما متفقان أيضاً في نظرتهما لكثير من الأشياء.

واتفقا أيضاً على أن يعود إلى حيث دفن (حمد) بندقه، فعادا يقتصان أثر حمد الذي فوجئ صاحبه (غفصان) بأن آثار قدميه تكاد تلتصق في الرمل بمعنى أنه لا يكاد يتحرك، وقال غفصان له: إن حياتك بعد هذا معجزة، فتذكر حمد سبباً لهذه المعجزة، فلم يجد إلا دعاء والدته له لأنها كانت امرأة صالحة.

كانت آثار حمد تختفي في بعض الأحيان بفعل ريح هبت البارحة، وتبين أحياناً أخرى، حتى وصلا إلى الشجيرة التي دفن فيها بندقه فاستخرجها (غفصان) الذي كان يمشي خلف

البعير أحياناً ويركب أحياناً ، أما (حمد) فإنه كان راكباً طول الوقت.

الرفقة الملائمة :

ليس ألزم من الرفيق لمن يسافر في بيئة كبلادهم في الأزمان القديمة ، عندما كانت كل بلدة أو مجموعة قرى يحكمها أمير لا يمتد حكمه إلى غيرها ، أما الصحراء فإنه لا حاكم لها ، ولا نفوذ إلا نفوذ الأعراب الذين لا يخضعون لقانون غير قانون الغاب.

وقد وجد كل رجل منهما في صاحبه الرفيق المناسب في السفر ، وشعر (غفصان) أنه وهو في صحبة رام مجيد قد أصبح في حرز حريز من غارات الأعراب ، ومن انتهابهم ، كما شعر (حمد) وهو راكب طاعم شارب أنه قد نال ما يريد في صحبة (غفصان).

إضافة إلى كونه يشعر بأنه يؤدي واجباً عليه لمن أنقذ حياته وخلصه من الورطة الفظيعة التي وقع فيها ، وقد أصطاد (حمد) أرنباً برية فطبخوها عشاءً ، وكان مع غفصان دقيق في زاده طبخوه مع لحم الأرنب.

ولم يشعرا بأن أحداً من الأعراب يراقبهما فضلاً عن أن

يجابههما بشيء، وتبين أن الأمر عكس ذلك.

الورطة:

سريا في الليلة الرابعة لخروج (حمد) من البئر حتى انتصف الليل، ثم أناخا البعير وراحا في إغفاءة بعد السرى، وتبين أن أعراباً كانوا يراقبونهما تسللوا إلى البندق أول الأمر فاستلوها وأبعدوها، وعندئذ صار الرجلان من دون سلاح، فهجموا عليهما بالعصي والحصى الصغار التي تكون بمقدار الكف يرمي بها الإنسان من يريد أن يؤذيه، وهم يقولون لهما: ابعدا عن البعير، والذي معكم فرفعا أيديهما علامة التسليم، ثم أوثقهما الأعراب وأخذوا جميع ما معهما وحملوه على البعير.

أما بندق (حمد) فإنه لم يرها، وذلك أن الأعراب كانوا أخفوها قبل ذلك.

ثم أسرعوا إلى خلع ملابسهما كلها حتى لم يبق على جسد الواحد منهما أي شيء يستر عورته، ولما توسلا إليهم بأن يتركوا لهما ما يستر العورة قالوا:

احمدوا ربكم لكوننا لم نقتلكم، ولولا أننا نخاف أن لكم والدين أو عيالاً لكنا قتلناكم، ثم أخذوا حتى القيد وهو حبال قوية كانوا قيدوهما به، وانصرفوا.

كان أشق ما عليهما أن ينظر أحدهما إلى عورة صاحبه، فكان الرجل منهما يضع إحدى يديه أمام عورته الأمامية والأخرى خلفه.

وظلا وقد فقدا كل شيء حتى السير المعتاد إلى أن لمحا شيئاً على البعد ظنا أنه خرقة خلقة قد تستر العورة فوجداها غراباً ميتاً فانتزعا جناحيه وجعل كل واحد منهما جناحاً أمام عورته إذا أراد أن يواجه صاحبه.

وطلعت الشمس فأبرزت ما قد يكون أخفاه الليل من العورة، فقررا أن يبقيا في مكانهما خوفاً من العطش إذا سارا ولم يجدا ماءً.

وعندما جن الليل سارا بحيث لا يرى أحدهما الآخر وكان غفصان يعرف قرية صغيرة مؤلفة من عدة أبيات في تلك الناحية فوصلاها بعد يومين، وتعمدا أن يدخلا إليها في الليل ولكن كان سورها مغلقاً فباتا خارجها.

الطامة الأخرى:

عندما فتح باب سور القرية بعد صلاة الفجر أسرعا بالدخول دون أن يراهما الذي فتح الباب لكونه ذهب قبل دخولهما، ثم أسرعا إلى أول بيت وصلا إليه من القرية فدخلاه

فوجدا ثياب امرأة أسرع أحدهما بلبس أحدها، وأسرع الآخر بلبس الثوب الآخر، وذلك من باب الحرص على ستر العورة ليريا ماذا يفعلان بعد ذلك، أو هذا هو الذي هداهما إليه تفكيرهما لأنه لا شيء غيره.

وفي هذه الأثناء رآهما رجل من أهل البيت وهما يخرجان فأسرع يصيح بأهل البيت: إنهما لصان اقبضوا على اللصين إنهما متنكران بلباس النساء، ولم يكن عرف بأن ملابس النساء هذه هي من بيته، وأسرع إليهما الرجال فأمسكوا بهما يوسعونهما لكماً وضرباً بالأيدي، وعندما كلت الأيدي نابت مكانها النعال.

حاول الرجلان أن يتكلما ولكن لا فرصة لذلك، ثم قادوهما إلى أمير المدينة التي تتبعها القرية، وهي على مسيرة يوم وليلة من هذه القرية.

كان اسم المدينة (المستظلة)، وذلك لكثرة الأشجار فيها كثرة نسبية، واسم أميرها وأمير تلك الناحية (بطاش القطشي).

سألهما الأمير عن السبب في إقدامهما على الدخول إلى منطقته ومحاولة السرقة منها مع أنهما لا بد أنهما يعرفان مثلما

يعرف غيرهما عن العقاب الشديد الذي يوقعه بالسارقين، والمنتهبين حتى أصبحت مضرب المثل في الأمان، وقلة اللصوص، فحاولا أن يشرحا له حالهما ولكنه سارع يقول: ثم أنتما ذهبتما تلبسان لباس النساء مثل اللصوص المهرة الذين يتنكرون بملابس النساء، ويدخلون إلى البيوت، فإذا لم يكن فيها شيء يسرقانه أسرعا إلى سرقة أغراض النساء.

أيها الرجال وأشار إلى خدمه، ابطحوهما ثم اضربوهما، فأسرعوا بعد أن تمددا على الأرض قسراً يلهبون ظهر كل واحد منهما بسياط دقيقة حتى تشبع الثوب النسائي الذي لا يزال يلبسه بالدم.

وكان الحاكم في أثناء ذلك يقول: إذا أردتم تخفيف العقاب فاذكروا أسماء شركائكم من اللصوص، وأخبرونا بالأشياء التي سرقتموها من قبل.

وكان (غفصان) أقل تحملاً من حمد، فأراد أن يجعلهم يوقفون ضربه بأي ثمن وبخاصة أنه شعر كما لو كان مقبلاً على أن يفقد شعوره من شدة الألم، لذلك قال للحاكم وهو الأمير: أيها الحاكم الكبير: لقد قبلت عرضكم أوقفوا الضرب عنا وسوف أخبركم.

فأوقفوا ضربهما وقال الأمير: هيا أسرع ولا يكن ذلك حيلة علي، فإن عقابي شديد.

فقال غفصان: أيها الأمير أخبرك أنني رجل لا آكل مالاً حراماً ولا أطيق ذلك بل لا أتصوره، ولذلك عندما رأيت الرجل المقتول في الخرابة التي في جانب البلد، وتحته خزانة الأمير المسروقة لم أجرؤ حتى على أخذها وهي مدفونة في الأرض ليس حولها إلا جثة رجل قتيل.

وكان قد سمع قبل ذلك مثل ما سمع غيره أن خزانة أمير تلك الناحية قد سرقت، ولكنه لا يعرف مثل غيره من الذي سرقها، غير أنه كان وهو صغير عرف صبياً سارقاً كان يسرق الأشياء ويدفنها تحت الأرض، ثم يأتي بجثة قط أو كلب أو دجاجة ميتة فيضعها فوق الشيء المسروق المدفون، يعمي بذلك أثره على الناس، فتصور (غفصان) بدافع الألم أن اللص الذي سرق خزانة الأمير كان دفنها ووضع جثة الرجل القتيل فوقها أو هو قتله ليجعله فوقها.

استعاد الأمير قول غفصان منه مرة أخرى ومرة ثالثة.

ثم أمر رجاله أن يكفوا عن ضربهما قائلاً: لنر، وأرسل آخرين إلى المكان الذي وجدت فيه جثة رجل قتيل في خرابة،

وكان ذلك القتيل أحد لصين سرقا خزانة الأمير ودفناها في تلك الخرابة، ثم اختلفا على اقتسامها وهي تحتوي على ذهب وفضة وجواهر، فقتل أحدهما صاحبه وفر لأنه شعر بأناس يقتربون منه، ثم علم أهل القتيل بأن الذي قتله هو فلان اللص، ولم يعرفوا شيئاً عن سرقتهما الخزانة فترصدوا له وقتلوه.

وبهذا عمي أمر الخزانة بل أمر القتيل على الأمير.

ولم يمض وقت طويل حتى جاء رجال الأمير الذين أرسلهم إلى تلك الخرابة يبشرونه بأنهم وجدوا خزانته لم تنقص شيئاً مدفونة في ذلك المكان.

العز بعد الذل:

التفت الأمير إلى (غفصان) وقال: الآن عرفت صدقك، وأنك رجل أمين مخلص لي عندما قتلت ذلك اللص، ولم تمس خزانتي بسوء فلم لم تخبرني عن ذلك في حينه.

فقال: أيها الأمير كنت خائفاً من أقارب اللص الذي قتلته، وتحينت الفرصة فلبست ملابس النساء لئلا يعرفني أحد، وجئت إليك مع صاحبي لأخبرك، ولكن أهل القرية قبضوا علي وأحضروني إليك على الهيئة التي عرفتها.

لم يكن (غفصان) يقول الحقيقة، ولكنه ليس لصاً حقيقة، لذلك أراد أن يتخلص هو وصاحبه (حمد) مما هما فيه بقصة ملفقة غير أنه حالفه التوفيق باتفاقها مع قصة حقيقية لم يكن يعرفها.

أمر الأمير بأن تخلع عليهما ثياب جديدة، وأعلن فوق ذلك أن (غفصان) هو رجل أمين حازم، ولذلك ينبغي أن يتولى شؤون الأمن داخل المدينة وقراها، وأن يولي صاحبه (حمد) الأمن في الصحراء القريبة منها إذا أراد.

وأراد (غفصان) ذلك، وأمر حمد أن يقبل وكيف لا ؟ وقد أصبح بعد الجوع والعرى موظفاً كبيراً ذا رتبة محترمة في البلدة.

الانتقام:

كان (حمد) لا تزال تسيطر عليه ذكرى (بندقه) وكيف أخذها أولئك الأعراب، وتركوه مع صاحبه في البرية عريانين.

فأخذ يفكر في نفسه ويبحث الأمر مع صاحبه (غفصان) في الانتقام منهم، وكان له من منصبه ما يؤهله لذلك، ولكونه يعرف أولئك الأعراب، ومعرفتهم بحال من يهاجمونهم

من المسافرين، فإن كانوا كثرة أو مسلحين هابوهم، وإن كانوا قلة أو ضعفاء هجموا عليهم، فاحتال (حمد) بأن أخذ معه بعيرين ركب أحدهما متنكراً، وأركب رفيقاً له على آخر، وجعل على كل واحد منهما غرارتين، وهما الكيسان أخفى في كل واحد منهما رجلاً من رجاله الأشداء.

وقد صح ما توقعه إذ ما أن نزلوا في الليل، وقد أخفى أصحابه أيضاً تحت الأمتعة حتى هجم الأعراب، فخرج أصحابه عليهم وأمسكوهم وأحضروهم للأمير، وقال حمد له: أيها الأمير هؤلاء هم الأعراب الذي أخافوا السبيل، واعتدوا على المارة وسلبوهم مالهم وما معهم من ركاب، وكانوا يتركونهم للضياع والهلاك في الصحراء.

فأدخلهم السجن، ثم سأل عنهم فوجدهم من كبار قبيلة معروفة، وليس من عادة أمثالهم السرقة والانتهاب، لذلك شك في حكم (حمد) عليهم إلا أن حمداً أصر على قوله لأنه يعرفهم شخصياً، وذلك لأنهم كانوا الذين نهبوا ما معه وصاحباً له مرة من المرات وتركوهما عريانين.

وقال الحاكم: هؤلاء لهم جماعة من الأعراب ونخشى ألا تكون متأكداً فنكتسب عداوتهم بدون بينة، وقد تكون مخطئاً.

فقال حمد: ولم يكن أخبر الأمير بما كانوا أخذوه منه: إن العلامة أيها الأمير أنك ستجد إذا أمرت بتفتيش منازلهم بندقاً صفتها كذا، يعني بندقه وشماغاً صفته كذا، وذكر أشياء مما كان معه ورفيقه قال: وعلامة على ذلك أنهم كانوا سرقوا بعيراً عليه الوسم الفلاني، فأمر الأمير بإرسال قوة فتشت منازلهم فوجدت أن ما ذكره حمد صحيح.

فازدادت مكانته في نفس الأمير وقومه، وتوطدت منزلته هو وصديقه غفصان عندهم بحيث أرسل كل واحد منهم إلى أهله فجاؤوا إليه، وحذرهم من أن يفشوا شيئاً من أسرار نشأته في بلده.

وهكذا بقوا حتى أتاهم الموت، ولكنه موت الأجساد كما يموت سائر العباد، لا موت الذكر في الفكر.

والله أعلم وأحكم.



المحتويات